روايات الهلال

٣

لصوص فنيسيا

« تعريب ادارة الهلال »

الجزء الاول

نفقة ادارة جريدة الهلال بمصر

في ادارة الهلال بمصر ووكلائها بالجهات

طبع بمطبعة التأليف بمصر سنة ١٨٩٤

مؤلفات جرجي زيدان

منشيء الهلال

(١) «تاريخ مصر الحديث» من الفتح الاسلامي الى هذه الأيام مع ملخص تاريخها القديم وهو جزآن كبيران فيه ماية رسم واربع خارطات ثمنهُ ٤٠ غرشاً صاغاً واجرة البوسطة ٥ غروش

(٢) «تاريخ الماسونية العام» من اوَّل نشأتها الى هذه الايام ثمنهُ ٢٠ غرشاً واجرة البوسطة غرشان

(٣) «التاريخ العام» الجزء الاول يتضمن تاريخ ممالك اسيا وافريقيا وخصوصاً مصر ثمنهُ ٨ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش واحد

(٤) «الفلسفة اللغوية» فيها بحث تحليلي عن الفاظ اللغة العربية ثمنها ١٠ غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(٥) «جغرافية مصر» (طبعة ثانية) تتضمن جغرافية المديريات والمحافظات وخصوصاً القاهرة ثمنها وحدها ٣ غروش ومع الخارطة ٥

(٦) «اسير المهدية» رواية تاريخية غرامية تتضمن حوادث عرابي والمهدي وحادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق . ثمنها ١٠ غروش صاغ واجرة البريد غرشان

(٧) «المملوك الشارد» (طبعة ثانية) رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث مصر وسوريا في زمن المغفور لهُ محمد علي باشا والامير بشير الشهابي ثمنها ٨ غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(٨) «استبداد المماليك» رواية تاريخية تتضمن حوادث آخر القرن الماضي ثمنها ٨ غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(٩) «جهاد المحبين» رواية ادبية غرامية ثمنها ٦ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش ونصف

(١٠) «رد رنان» على انتقاد تاريخ مصر الحديث ثمنهُ غرش واحد

(١١) «السنة الاولى من الهلال» مجلدة تجليدا حسنًا وموسومة بماء الذهب ثمنها ٥٦ غرشاً واجرة البوسطة ٥ غروش صاغ

(١٢) «السنة الثانية من الهلال» مجلدة تجليدًا حسنًا وموسومة بماء الذهب ثمنها ٥٦ غرشاً واجرة البوسطة ٥ غروش

(١٣) «ملخص تاريخ اوربا» (تحت الطبع)

روايات الهلال

(١) «استراتونكي» (تأليف صموئيل افندي يني) وهي الرواية الاولى من روايات الهلال غرامية حصلت تاريخية حوادثها في زمن خلفاء الاسكندر المكدوني ثمنها خمسة غروش واجرة البوسطة غرش

(٢) (لصوص فينيسيا) هي الرواية الثانية من روايات الهلال تعريب ادارة الهلال . الجزء الاول ثمن النسخة خمسة غروش واجرة البوسطة غرش

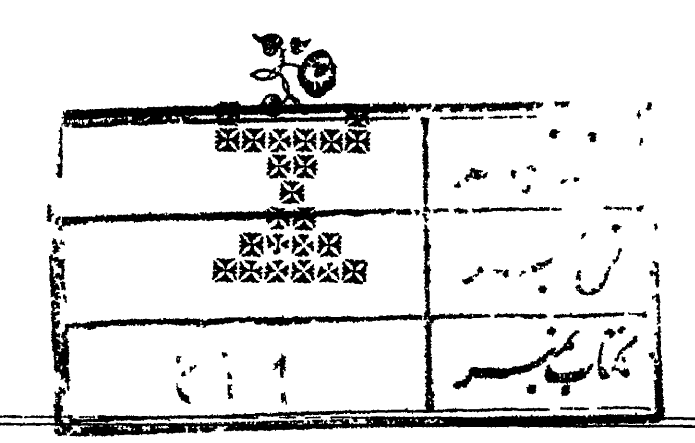
تطلب هذه الكتب من ادارة الهلال في القاهرة ومن وكلاء الهلال في الجهات ومن ارسل بثمنها مع اجرة البريد ولو طوابع بوسطة ترسل اليه حالاً



المقدمة

هذه هي الرواية الثانية من روايات الهلال وهي رواية تاريخية ادبية حدثت حوادثها في فينيسيا (البندقية) قبل عهد تمدنها الاخير وتتضمن وصف حال القرصان (لصوص البحر) وما كان يقاسيه الناس من تعديهم مما يكشف النقاب عن احوال تلك الاعصر باجلى بيان فيطلع القارئ على طبائع هؤلاء الاقوام ومعتقداتهم وعوائدهم واحوالهم وتاريخهم بغير ان يشعر بملل من المطالعة

والرواية جزءان هذا هو الجزء الاول منها وسيصدر الجزء الثاني بعد قليل فنرجو ان تصادف من القراء قبولاً واقبالاً والله حسبنا ونعم الوكيل





الفصل الاول

❋ مغارة اللصوص ❋

كانت حكومة فينسيا (البندقية) جمهورية شديدة الحول عظيمة المكانة ممتدة النطاق وكانت سفائنها تجوب البحار رافعةً رايات عزها وتجارتها الى ابعد البلدان فنالت الشهرة الواسعة والكلمة النافذة وتلقبت بالدولة الفخيمة ازدهاءً وعزاً

ولم يكن سلطانها مقتصراً على ذاتها بل كان يتناول في الاحايين مواضع اخرى من جوارها

وكانت احدى الجزر اليونانية جميلة المنظر على ان في مياهها سفينةً يعرفها الخبير من بنائها وجهازها وكثرة ركبها وجمال هيئتها وظاهر سلاحها انها من بوارج الحكومة

وبرزت جمهرة مأموري البارجة وضباطها الى الظهر وكلهم بالالبسة الرسمية الفاخرة وبينهم فتىً يزيدهم طولاً ويفوقهم جمالاً على انه حدث الى حد يستغرب معه كيانه ربانًا لهذه البارجة

الا ان لرئاسته هذه سببًا وهو ان حكومة فينسيا كانت على عظمتها واعتلاء قدرها ترى ما ينغص عيشها ويكدر صفاءها ذلك ان في جوارها لصاً جريئاً كان ينتاب اقطارها ويسلب بنيها وقد دست عليه العيون والارصاد وجهزت لاقتناصهِ المرة بعد الاخرى البعوث البحرية في سفن ضخام معقود عليها لبضعة من خيار رجالها فخابت جملة مساعيهم وحبطت كل اعمالهم واللص غير واجس من الحكومة خوفاً

لقصور يدها عن منالهِ فوقع ذلك منها موقعاً جليلاً لحسبان قصورها خفضاً من شأنها سيما وان اعاظم رجال البحر عندها لم يدركوا غبارهُ بل كان ينهب ويسلب ويقتل وهو على مقربة من مطارديهِ لكنه في مأمن من لحوقهم بهِ

وكان بين بطانة الدوج اي رئيس جمهورية الدولة فتى من تباعهِ ليس له في الخدمة اثر مذكور الا ان النجابة كانت بادية على محياهُ والذكاء ظاهراً فيه وناهيك بان نفسهُ كانت تحدثهُ بالعلياء وتدفع بهِ الى العظائم وكان من رجال البحر واسمهُ الربان ادريان فدعاهُ الدوج اليهِ واناط بهِ مطاردة لص البحر ورجالهِ طراداً عنيفاً على بارجةٍ من من بوارج الدولة ووسد اليهِ مطلق الامر في استحياء اللص او قتلهِ او اجراء ما شاء من قطع شافة اللصوصية كحرق الموضع وما ماثل ذلك فارتاح الربان الى قضاء المهمة لانها مدرجة العلياء وسعى الى ادراك الامنية في كل سبيل لئلا يلتوي القصد عليه فيبوء بغضب الدوج ونفرته من حيث يرجو رضاهُ

فبذل الجهد جهيداً في قضاء وطرهِ مدى شهرين على انهُ كان يرى اللص ماخراً العباب ولا يلبث ان يلحق بهِ حتى يمحي اثرهُ ولا يراهُ فضاقت بهِ الحيل وعزَّ السبيل لان اللص لم يخشَ بأساً ولم تقعدهُ رهبة المطاردة عن خباثتهِ بل لبث يجترح اللصوصية

الاَّ ان الدأب لبلوغ الاماني سبيل الى الفوز بها ولا يعسر على الانسان اذا جدَّ ان يمهد الصعب ويستسهل الحزن ولو تبدى الامر في بدئهِ عسيراً فمن ثم بات الربان ذات يوم بعد ان امعن في البحث والظن بمعرفة

مغارة اللص التي يزدخر فيها جني اثامهِ فاتجه ببارجتهِ اليها ورسا على مقربةٍ منها

وكان رجال بارجتهِ فرحين معهُ لان الغنائم المزدخرة اذا كسبوها استباحوها لانفسهم رزقاً حلالاً لا تطالبهم الحكومة بنصيبها منها لان جلّ غايتها ومنتهى امنية نفس رئيسها ان يظفر باللص حياً او ميتاً على ان الدوج لم يكن عارفاً بما دون ذلك المنال من الصعاب ولا مدركاً ما وراء بغيتهِ من الموت الزوام

واذا كانت البارجة في موقفها نزل ضابط لها من موقفهِ في السارية ومال الى الربان قائلاً

— لعلّ لهذا اللص حلة مع ابليس الرجيم لاني منذ نصف ساعةٍ رأيتهُ هنالك (واشار الى جهةٍ جنوبية) بمركبهِ وهئنذا لا اراهُ

— لعلهُ وراء هذه الجزيرة وعسى ان هذا الهدو طويل الامد

قال ذلك بصوتٍ رخيم يشبه نغمة النساء الحسان على ان ذلك صوتهُ حال مسرتهِ فاذا انقلب الى الغضب خشن وقسا

— اجابهُ الأمور واسمهُ روبرت ستانلي — لعلهُ يدوم اثني عشرة ساعة

— اذاً لا بدَّ لي من غشيان هذه الجزيرة التي اراها ملأى باشجار الزيتون والليمون ودوالي العنب ولكني لا ارى فيها بشراً وهذا ما حدا بي للظن بها خيراً بحيث تكون لنا ملاذاً لكشف السر الغامض فاشتري لي قارباً اذهب فيه مع ارجح الرجال سدوداً

قال ذلك والتجئ الى الدعة واللطف لمن حولهُ من الرجال ومار

الى حجرته فلحق به مأمور من صغار موظفي البارجة لان الربان اشار اليه ان يفعل وكان هذا المأمور فتىً غريب الجنس اخذه البنادقة (اهل فينسيا) من بلادٍ مغلوبة على انهُ ابن اميرها فتربى في حضن الجمهورية وتثقف وتعلم الملاحة وارتقى الى احد مناصب البحر وصحب صديقهُ ادريان في سفرته وكان اسمهُ سليماً فلما دخلا الحجرة قال الربان

— اي سليم يخال لي اني استطيع الاعتماد عليك فابرقت اسرة الفتى ولمعت عيناه بالذكاء الطبيعي وعلت وجههُ الاسمر حمرة الخجل وقال

— اما انت صديقي المحسن اليَّ فكيف اعصى لك امرًا

— رأيت الاحسان عند معظم الناس منقصةً وذماً وقلَّ ان وجدت من يرعى الجميل ويجازي عن الاحسان بغير الكنود واما انت فعساني لا القى منك الا الجميل جزاء لاني والحق يقال لم احب مثلك بشرًا وانما سألتك المعونة لاني على وشك الذهاب في سفرة محفوفة بالمخاطر ولا يعلم مصيرها الا الله ولا اريد ان يصحبني فيها الاَّك

فبرقت اسرة الغلام وصفق بيديه سرورًا وقال

— اي مولاي انها لسفرة خطرة الا انها مما اسر به كثيرًا

فبسم الربان ارتياحاً واوعز اليه ان يتأهب للرحيل وان يعدَّ كلما لزمهما وما ذلك بالشيء الكثير اذ يعوزهما النذر القليل بحيث كان زورقاً صغيرًا لا يسع غيرهما ولا يصحبان الا غطاءً صفيقاً يقيهما مصرة الندى اذا اضطرا الى المنام تحت القبة الزرقاء واما سلاحهما فيجب ان يكون خفيفاً وان هو الا الغدارات والخناجر وبندقية واحدة من الطرز القديم الحسن

فلما ارخى الليل سدوله' كانت البارجة قائمة في البحر من غير دليل تستأمن في هديهِ ومع ذلك فانها دلت الزورق بملء التؤدة والسكينة من جانبها المواجه للبر فما لبث ان انحدر الربان وسليم تشيعهما عيون رجال البارجة من الكبير الى الصغير ويخفق لها كل قلب حذراً عليهما من الضرر سيما الربان فانه' كان محبوباً من رجالهِ اجمعين الا واحداً منهم سيحكى عنه' في سياق الحديث حتى اذا حيا الربان تحية الوداع اجاب القوم بالدعاء له دعاءً خالصاً من شوائب المكر والنفاق

ووقف روبرت بجانب رئيسهِ ووضع كفه' على كتفهِ كما يفعل الاخدان والاصفياء وقال — حذار من العجلة ومن التهور والله يتولاك ونحن نتوقع عودك الينا سالماً معافًى ان شاء الله قبل ان تستنير الارجاء بشمس غدٍ

وسمع العبارة احد الموظفين وكان قصير القامة ممتلىء الجسم دميم الخلق فقال ولكنه' لم يسمعه' احدٌ — او لا يرجع ابداً

وانحدر الرجلان الى الزورق فجلس ادريان الى الدفة يديرها وقبض سليم على المجذاف وشرع يجهد النفس في العمل حتى لو رآه' احدٌ لما حسبه' الفاعل لان هيئته' لم تكن تدل الا على لطف الاتي بعيد المرمى عن خشونة الرجال وصعوبة اعمالهم وناهيك به حدث عهدٍ في الملاحة

ومع ذلك فان القارب سار بهما حثيثاً وهما لا ينبسان ببنت شفة حتى ساد السكون لولا وقع الامواج وهدير البحر وما عتمّ ان حجبت البارجة عن نظرهما اذ سدلت عليها الدجنة ستراً اما الجزيرة التي اتجه الزورق نحوها فباتت لاعين الرجلين شبحاً لا يزداد ظهوراً كلما ازداد الزورق قرباً

ورأى الربان نارًا في الجزيرة مشبوبة فأشار الى سليم فهدأت حركة تجذيفهِ فقال لهُ — اما ترى النار مشبوبة كأَنها على مساواة الماء فاعتلى الغلام قليلاً وحدج الموضع المشار اليهِ بنظرهِ

ثم قال — بلى انها مضرمة عند باب مغارٍ كبير

— تالله انا ظفرنا بمغارة اللصوص فعليك يا بنيَّ بالتجذيف وصولاً الى الغاية

— الا ان ..

— عليك بالطاعة ليس الا والظفر قرين الاجتهاد

فلم يعترض سليم على هذا الامر لما رآى من عزم الربان عند اصراره ولم يكن يرى من ادريان تلك الهيئة الدالة على الاصرار من قبل وقال ان عرف منهُ الرغبة الوقادة في استئصال شأفة اللص وقطع دابر خبائثهِ ليعود الى الوطن ظافرًا غانمًا

على ان ادريان لم يكن ميالاً الى مقارعة اللصوص ولا راغباً في قضاء المهمة لارتياحهِ الى مثلها بل لان مطامع نفسهِ كانت اسمى واعلى حاسباً ان الظفر بهذا اللص الجريء يمهد سبيلهُ لا للنهوض بحروبٍ اشد وقعاً وافخر اثرًا بل ان مطمح انظارهِ كان ابعد مرمى اذ امتد حسبانهُ الى ساعةٍ يقوم فيها مقام حامية الوطن ذائدًا عنهُ جائحة العدوان الخارجي رافعاً عن عاتق بنيه سوء الادارة كالغاء ما كانوا يسمونهُ فم الاسد ومجلس العشرة والثلاثة والعذاب المبرح ومجلس التفتيش الصارم مما كان تئن لهُ البنادقة اسفاً وتظلماً ولكن ذلك امر بعيد المنال على من لم ترسخ قدمهُ في الدولة ومن لم تجتمع اليهِ الكلمة النافذة وتوسد لعهدتهِ المنزلة العليا وانما بشر تخطى الحد وباح بما

كنّ في الصدر لقي الحتف عجولاً

وكان الزورق قد سار حتى اصبح في مجرىً من الماء شديد حمله بعنفٍ الى جهةٍ شرقية وكان ادريان رى منذ حينٍ شجرة قائمة على قنة الجزيرة ويحسب موقعها منهُ فاذا به قد دله على انحراف القارب شرقاً ثم حقق ذلك بما رأى من شبح البارجة فثبت لديهِ الانحراف ومن ثمّ فان الزورق اصبح تلقاء فوهةِ المغارة تماماً فنظر الربان الى الصخور القائمة حواليها واذا بها كالجبال الروابخ علوّا وكبرًا فعلم ان المغارة هائلة الكبر وان سقفها عالٍ في ابتدائها ولا يزال يتدرج في الانحطاط حتى يلاصق الارض في طرفهِ الاخر وان الذين فيها اضرموا ضمنها نارًا وقيدها من الاخشاب الصمغية فاستنارت بها ارجاؤها وحسب ان النار علامة لقومٍ اخرين في جزيرةٍ مجاورةٍ يفصلها عن هذهِ بوعار من الماء ربما كان عمقهُ لا يكفي لحمل البارجة فيما لو اراد ربانها ان يجيء بها اليهِ

وكأن القرصان قد حسبوا لكل شيءٍ حساباً الا لجراءة رجلين يقدمان على زورقٍ صغير فيفضحان اسرارهم

وما عتمّ ان اشتدّت قوة المجرى فكادت تجرف الزورق او تقلبه بمن فيهِ ظهرًا لبطن على ان تقدمهُ نحو المغارة كان يزيدهُ تأثرًا من القوة المتزائدة فشعر الربان بالخطر وما كاد ينعم الفكرة حتى ظهر لهُ ان الطبيعة تذود بعناصرها عن اولئك اللصوص ذلك ان شلالاً عظيماً كان على مقربةٍ منهم ولذلك فان الجرى كان يزداد قوةً عند الدنو من المغارة لاقتراب تحدّره وسمع ادريان هدير الماء اليه وشعر بقوة الاندفاع فكاد يراع اذ حسب ان [illegible] دفع الزورق في تيارهِ الى وهدةٍ ربما كان منتهاها

في جوف الغار فنظر الى رفيقهِ وقال — اعطني مجذافاً فلما أعطيه سبر الماء
فمس اليابسة وصاح برفيقهِ قائلاً — اي سليم ان على تجذيفك خلاصك

ثم قبض على الدفة بيد واخذ بالاخرى يدفع الزورق لتخليصهِ من التيار العظيم وكانت الساعة هائلةً والموت نصب العيون فاجهد الرجلان نفسيهما حتى دفعا بالزورق الى ما وراء التيار فاعاد المجذاف الى سليم وشرع ينظر في الشاطىء حتى اختار مرسىً حسناً لايتصل اليهِ نور المغارة فشرع سليم يجذف نحوهُ تجذيفاً خفيفاً وبلغ البر فخرجا اليهِ من غير ان يسمع لهما حسٌّ .

ثم التفت ادريان الى سليم وهمس في اذنهِ قائلاً — ابعد عن النور جهدك واعلم اننا بين مخالب الذئب

— بل نحن في موقفٍ اشد خطراً من فم الاسد

— صه ولا تنطق بكلمةٍ تدل على الالمام بالحكومة لان الطاعة والحكمة تقضيان بالسكوت في مثل هذا المكان وبعد ذلك جعلا الزورق في مأمنٍ وخرجا يختلسان الخطى

الفصل الثاني

اسرار الغار

وكان الرمل رطباً ناعماً لا يصيت بدوس الاقدام فمرّ الرجلان عليهِ من غير ان يشعر بهما احدٌ وما زالا حتى دنت خطواتهما الى مقربة من النار حيث ابصرا شرفةً مصطنعةً من حجارة بحرية يطل النافذ منها على ما هنالك فجعلا ينظران

ولاحت من اذريان التفاتة الى ما حول النار فكاد يصيح منذهلا الا انهُ امسك بردن سليم واشار الى مصدر دهشته فرأى الفتي ثمة مقعداً اخشن الصنعة ولكنهُ مزدان بفتاة بديعة الجمال كانت متكئة عليه وفوقها من الشيلان قطع نفيسة تلتحف فيها وقاءً من رطوبة الليل وحسب انها تكاد لا تبلغ الخامسة عشرة من سنيها وان ملامح وجهها الجميل تدل على كرامة طينتها وحسن خلقها وانها ايطالية الاصل لا ريب فيها ثم نظر اليها فوجدها غائصة في تأملاتها وان ملابسها خليطة بين اليونانية وسواها واما ذراعاها فكانتا مجردتين يظهر ماء جمالها سيالاً لولا يحبسهُ الدملج في معصميها فيزيدها بهاءً

وكأنها ملت هذه التراخي والكسل او انها سمعت حساً خفياً ففتحت عينيها البديعتين ورفعت ناظريها الى فوق ونطقت بلغة اليونان سكان هاتيك الجزائر قائلة — من ترى جاءَ من هذا الصوب

فلما سمع الربان كلامها العذب تقدَّم اليها بقدم ثابتة وجاش رابط وقال — لسنا من الاعداء ان شاءَ الله

ثم انتصب امامها فبرزت محاسن هيئته وزادت اندهاش الفتاة وحيرتها فلم تبد حراكاً كأنها صرعت او اخذتها اسكتة ذهولا عن الدنيا فلما رآها ادريان على هذه الحالة خاطبها بلغتها قائلاً

اسألك ايتها البديعة الحسن ان تغضي الطرف عن جسارة دخولنا عليك ثم تقدم نحوها وقد ضنَّ بنفسه ان يبوح لديها بغاية محبته فلما فقهت خطابهُ قالت — لابأس من هذه الزيارة ونما ادنُ مني لارى اذا كنت بشراً

فبداء يتقدم نحوها وشرعت تنظر اليه وهي محتارة حتى سكن روعها

وثقت بانهُ بشرٌ مثلها فنهضت ترحب بهِ واشارت اليهِ ان يجلس على مقربة منها

وكان ادريان على حداثة سنه عارفاً لشؤون الناس خبيراً بمظاهر الوجود فراى من الفتاة حيرةً وعجباً لا يصدر الا من احد امرين اما انها لم تكن ترى رجلاً او ان الرجال الذين كانت تراهم لم يكونوا من طرزهِ

فلما دعتهُ الى قربها اجابها الى ذلك مسروراً غير ملتفت الى سليم وقطوبهِ اذ كان قد وقف بعيداً ينظر اليهما بملء الغيرة والانقباض اما الفتاة فاذ سرَّها وجود رجل تحدثه في وحدتها وعزلتها شرعت تظهر صفات الصغيرات اللواتي لم تتغير مظاهرهن الطبيعية بتمويه الحضارة الخارجي واتصل حبل الحديث حتى عرف ادريان من سيرتها انها لا تعرف من امرها شيئاً سوى انها في هذه الجزيرة وانها تسافر في الاحايين على احدى السفن في صحبة رجلٍ هو مولاها وولي امرها على انه ولئن كان رأوفا بها متحبباً اليها وهو ظاهر الشجاعة فانها لا تميل اليهِ ولا تجد في نفسها له محبة قالت ذلك وتنهدت قليلا

— وهل ليس لك رفيقات تأنسين اليهن في وحدتك

— بلى ان في الجزيرة نساء غيران وليَّ امري يحظر عليَّ مخالطتهن بل الاتصال المطلق باحدٍ من الناس

— وهل ان هذا الوليّ ابوك

— لا فان كلمة ابي تزعجهُ واذا دعوتهُ بها انقبضت سحنته ولا افقه لذلك معنى

فتبسم ادريان وقال — اهو حدَث

—لا اعلم ولكني اراهُ اسمر اللون اسود الشعر والعينين على ان في هذين نارًا ولكنهُ ليس بالحدَث مثلك

- صدقتِ واني لااظنه كذلك . ثم فكّر قليلاً وقال- اني ورفيقي قد تجاوزن الحد فلا بد من الذهاب

فاجابت بصوت الحزن والانقباض قائلةً —اتذهب وتتركني وحدي كما كنت من قبل مفكرة بان الحياة صعبة المراس فالحق يقال انك لاتعلم كم يعسر على الانسان ان يقضي حياتهُ كلها منفردًا فعساك ان لاتصاب بذلك

فاجابها - اشكرك ايتها السيدة على اني لست الا من مأموري الدولة ومن واجباتي ان اخدم وطني وتريني الآن قد نزلت البرقياماً ببعض ما عليّ ويسوؤني ان اكون مضطراً الى مغادرتك ولكن لا نذهب حتى تتمكن صداقتنا

قالت ذلك وصفقت كفيها قبل ان يتمكن ادريان من معارضتها فظهر لديها اربع عذرى كلهن سمر الالوان فلم يبد عليهن اقل اندهاش لوجود الغريب بينهن فهمست الفتاة لهنّ كلاما فخرجن من حضرتها اما ادريان فمال الى رفيقه وقال له بلغة البنادقة اي سليم لعلنا نحبس هنا قليلاً

فقالت الفتاة اعد عليّ سماع هذه النغمة البديعة التي يدهشني تكلمك بها وكانت لهجتها بندقية فصحى مما كان ينطق بها كبار القوم في فينيسيا

- هي لغتي التي رضعتها مع اللبن واول لغةٍ نطقت بها

ورغب ادريان ان يستخبر من الفتاة عن حاميها ولكن كبرت نفسهُ ادبا وكمالا ان يتخذ نقاء ضمير الفتاة سبيلا الى ايذاء وليها على ان نفسهُ كـ تحدثهُ بمكانه من الخطر الذريع ولكن لم يكن المجال وسيعا للتامل اذ كانت

الحوادث تتوالى عليه سراعا بحيث لايبقين للفكر مجالاً وما عتمّ ان دخلت العذارى تحمل مائدة عليها ضروب اللحوم والخمور الفاخرة في الانية البديعة ودعت الربان الى الطعام ثم اشارت بالامر الى سليم كل ذلك وادريان كالمأخوذ يحسب انهُ في المنام سيما اذ شعر ان الفتاة علقت بهِ اذ جذبتها محاسنهُ وانها كرهت هيئة سليم

ثم شغله الطعام عن الفكرة فرأى من اللحوم ما دلّهُ على اجادة الطبخ ومن الخمور والفواكه ما اراه موائد الملوك في مواضع الصعاليك اما الفتاة فلم تكثر من المشاركة في الطعام لانها كان يشغلها امران اولها اكثار الشراب لادريان وثانيهما المداعبة والمسامرة كانها بنيّةٌ في احدث سنيها الا أن من حركاتها مادلّ على ان في بواطنها معرفةً بشؤُون الدنيا لاتكشفها الظواهر وهذا حدا بادريان الى الرغبة في نفي التهم عنها وحسبانها لاتضمر سوءًا ولكن ذلك بعيد الامكان اما سليم فاكل وشرب وهو صامت لايبدي حراكا ولكنهُ كان يراقب الاثنين بعيونٍ نقّادة حتى راى ربانهُ بداء يشارك الغادة باغنية غرامية فخاطبه بلهجة ينطق بها عامة البنادقة في اساكل بلادهم قائلا اي رباننا ان الوقت يذهب ضياعا

فهزّ الربان رأسهُ ولم يبدِ جوابا اما سليم فعاد الى سكوته وسكونه حتى انتهى ادريان من نشيده فمال اليه وقال

— ما بالك ياسليم

فاجابه هامسا — نحن في عرين الاسود والضرورة تقضي ببارحته قبل ان تستحكم فينا براثنهُ

- احسنت ثم التفت الى الفتاة وقال - اليس من الجهالة ايتها الفتاة الحسناء اني لم اسالك حتى الآن عن اسمك الكريم

- اسمي زليخه

- فيازليخه المالكة الفؤاد ان الضرورة تقضي علينا بالفراق مؤملاً بالله ان نفوز بالاجتماع ثانية

اما الفتاة فلم يبقَ لها ذلك المنظر اللطيف بل تبدل الى سحنة دلّت على حزن عميق فنظرت الى ادريان وهي صامتة وقد علتها صفرة الوجل من البعاد وشرعت نبضات قلبها تسرع وتقوى حتى كاد يغمى عليها لولم تستخرط في البكاء والعويل لانها فتاة لم تثقفها الحوادث ولم تهذبها الحضارة فظلت تطلق لحاستها العنان ولا تستر تأثرها عن العيان ثم قالت

— عدني انك تعود ولا تنسى زليخة

- ابي الله ايتها السيدة ان انسى الساعة التي قضيتها في هذه الجزيرة الجميلة فاذا اسعدني الحظ ولم يكن لي من واجباتي مانع ساسعى بالمجيء الى هذه الجزيرة واقدم لمليكتها البديعة احتراماتي ثانيةً

وفيما هما كذلك واذا بصوتٍ جهوري دوت لهُ اطراف الموضع اذ نادى «من كان هذا الجرىء الذي دنَّس حرمة موطني»

فلما سمعت زليخة ذلك الصوت ارتاعت وقبضت على كفيها قبضة اليأس والقنوط اما ادريان فرأى ازاء وجهه رجلا فعلت الشمس والمشاق فيه فغيرت من لونهِ الى السمرة بجبين عريض وهيئة تدل على السيادة وتعود الامرة وعيونٍ لماعة تخترق القلوب ولحيةٍ مسترسلةٍ الى

صدره اما لباسه فكان فاخرا اذ هو اشبه شيء بثياب اهل الوجاهة من سكان الجزر اليونانية وكان الى جانبه سيف مدلى وفي منطقته عدة من الغدارات . فلما سمع ادريان مقاله ورأى من معه من رجاله قال

– ومن تكون انت الذي تهين الغريب بمثل هذا الكلام

– انا كوزمو اللص الجريء القائم على عدوان فينيسيا والمحسوب عليها بلاء فادحا

فنظر الربان اليه مندهشا محتارا آسفا ولوهنيهة لجرأته على دخول عرينه فما تمالك ان انقضت دهشته حتى احاط به اثنا عشر رجلا من الاشداء وعطلوه من سلاحه وكذا فعلوا برفيقه سليم ومن ثم شدوهما وثاقا وصاح كوزمو برجاله قائلا

— خذوهما الى البركة

فأُخذا وكان اخر صوت سمعاه هو صراخ زليخة المنكودة الحظ والبديعة الجمال

الفصل الثالث

(في السجن)

وانتهى اولئك الاشقياء باسيريهما الى مغارة عميقة يكاد النور لاينفذها والقذر لايبرحها وتركوهما فيها حتى اذا افاقا من دهشتهما علما بحالها ومكانهما وهوله وان المغارة وسيعة الارجاء على انها لا تطاق اما وثاقهما في اليد والرجل فكان محكما

وكان ادريان شعر بسوء فعلته من البقاء طويلا بجانب الفتاة اذ اقام صامتا لايبدي ولا يعيد لان افكاره كانت مضطربة تحدثه بخيبة اماله وبوقوعه في حبائل اللص اذ نصب لهُ شراك الجبال فمكث طويلا وبحث عن حتفه بظلفه اما سليم فكان يراقب ربانه بملء السكون والصمت عارفاً من هيئتهِ انه لم يكن راغبا في الكلام لكن مثل ذلك الصمت لايدوم طويلا اذ يصبح في موضع الكلام عذابا اليما فقال سليم ان هـــذه لثمرة هائلة لسفرتك العظيمة - وان الجزاء على قدر العمل ولا انكر استحقاقي هذا القصاص اذ لم يكن لي ان اداعب الحسناء ولكن تقصيري نال جزاءهُ ولا يموت الانسان الا مرة واحدة

— غير ان الموت في حومة الوغى والمرء مدجج بسلاحه يذود بهِ عن نفسهِ ووطنهِ شيءٌ وفي مثل هذا المكان المظلم القذر صبرا من غير طعام الا العذاب والهوان شيءٌ اخر وكلاهما بعيدان اثرا

- ذلك ما ذكرت غير ان هذا قصاص لذنبي كما قدمت امـــا الآن فدعني انام لعلي اذا صحوت فكرّت بشيءٍ مفيد

فلم ينطق سليم بعد ذلك بكلام وساد السكوت في الحفرة المظلمة ونام الربان ادريان نوماً هادئا كانه على فراشه في حجرتهِ وما عتمّ ان فعل رفيقهُ كفعلتهِ

ولا خفاء ان النوم في ساعة الهول مما يعتاده البحارة فيصبح فيهم من الملكات الراسخة

وما زال الرجلان نائمين حتى اخترقت اشق النور الضئيل حجب ذلك المغار الهائل فتبين من ترددهِ انه صناعي اذ كان يزداد قربا

من موضع الاسيرين اللذين لم يتأثرا لظهوره بل لبثا نائمين كأن لم يكن ثمة حذر

وتبين بعد هنيهة ان مصدر النور مشعل كانت تحمله امرأة طويلة القامة عريضة الاكتاف ووراءها زليخة بهيئة اليأس والكدر مصفرة الوجه غائرة العينين حتى اذا صارت الى مقربةٍ من الرجلين شرعت زليخة تنظر حواليها موجسة خوفا من طارئة الليالي فلما راتهما اسرعت اليهما وسقطت الى الارض بجانبهما رافعة يديها للمولى تعالى شكرا لنعمه باستبقائهما فلما انهت صلاتها بدات توقظهما وتقطع الوثق ففتح ادريان عينيه ورأى زليخة فادهشه انحناءها عليه وسعيها في قطع ربطهِ وانها لما راته قد استيقظ قالت

— اسرع ورفيقك لان حياتيكما وحياتي ايضا متعلقات على اضاعتك نصف ساعة عبثا

فما كادت تنهي كلامها حتى انتصب ادريان قائما وشرع يشكرها بما استطاع من الكلام ومثله تخلص سليم ايضا فسار الجميع تتقدمهم المرأة التي كانت حاملة النور فنظر الربان اليها واذا بها حبشية اللون

وكانت فرائص زليخة ترتعد جزعا ولسانها يتلعثم بالكلام خوفا وفرقا ومع ذلك اخبرت ادريان انه في سرداب تحت الارض متصل بالبحر ومن عادتهِ عند ارتفاع المدّ ان تدخله الامواج وتجرف ما فيه الى اللجة او الى غير موضع من خبيئات الارض التي لا تدرك نهايتها على ان للموضع نوافذ جمة في مواضع عدة يستطيع الانسان النجاة منها اذا كان مطلق الوثاق ولكن الموثق لا يرى الا الموت قريبا

قالت الفتاة ذلك واردفت بان علمها بوثاقها وبان المدّ صار وشيكاً راعها جدًا حتى خشيت ان يذهب تعبها ضياعاً

وبينما كانوا خارجين من الدهليز رأوا الماء يتمالى وان المنية كانت اقرب من حبل الوريد من الرجلين فقبض ادريان على الفتاة بذراعيها واجتاز بها ماء البركة المتزايد حتى نجا بها من هوله وشرع يصعد بمن معه من الارض التي كانت على وشك ان يغمرها الماء منحدرًا اليها كشلال عظيم وما عتمَّ ان رآه يتجمع في الاعلى ليتمّ ذيالك العمل

وما زالت الحبشية تسير امامهم بالضوء حتى اشرفت على الفضاء ولم يبق لها من حاجة الى النور فرمت بهِ واعتاض القوم بنور الشفق اذ بلغوا من المغارة الكبرى حدّها الامين المشرف على البحر

وهنالك قالت الفتاة للربان ان اللص وبطانته في الجزيرة ولكنهم يرجعون سراعا متى صار الجزر او خفَّ المدّ ليروا نتاج ما جنت ايديهم وانها بالجهد تخلصت من مراقبة اللص وتخشى ان يفاجئها معهم فتكون ميتتهم اشد هولاً من الغرق ولذلك الحّت عليهم بالرحيل سريعا فقال ادريان — انك ايتها الفتاة الحسناء قد انقذت حياتي من الموت وانا لا انسى هذه النعمة قط مهما تقلبت الشؤون · واسوف ابذل الجهد في اعادة الاجتماع حتى اذا رافقني الحظ نلت منه ما اريد فاستودعك الله الى الملتقى · قال ذلك وضمها الى صدره بحرارة فلم يجد منها ممانعة بل شعر بها ترتعد جزعاً

وهما كذلك واذا بالحبشية تقول — اسرعا بالذهاب لانهم قد جاؤوا فذهبت زليخة عن المجتمع لئلا يبقى للاشقياء فيها مظنة شيء واما

الرجلان فاسرعا الى الزورق ودفعا به الى الماء فسار مضاداً الريح بالرغم عن اشتدادها الا ان الوقت ذهب والضرورة تقضي بالعجلة وذلك ما قضى بدفع الزورق من المغارة والسير بهِ ضد المجرى وما عتّم ان وقع لهما الجهد المذكور عند مجيئهما ثم اشتغال الواحد بالتجذيف والآخر بتدوير السكان الا ان الضرورة قضت بان يكون التجذيف بيد الربان لقوتهِ

اما اللص فقد شعر بالهرب ولذلك اسرع ببعض من لديه ووقفوا في اعلى المغارة ينظرون الى الزورق وهم مدججون بالبنادق حتى اذا نظروا الامواج تلاعبهُ بعثوا لهُ بطلقاتٍ ناريةٍ غير ان الاسراع في تحكيمها حرفها عن مرماها الا رصاصة واحدة اصابت مقبض المجذاف وكادت تدفع بهِ من يد الربان ولو فعلت لكانت القاضية على الرجلين غير انها لم تؤثر بل بعثت بادريان الى الاسراع في التجذيف والشدة فيه فعندئذٍ دوت الارجاء بصوت النفير فعلم الربان ان تلك اشارة اصدرها اللص وما مضت عليها عشر دقائق حتى برز من احدى جهات الجزيرة قارب مملوء بالرجال وشرع يتجه صوب زورق بسرعة غريبة رآها الرجلان فعرفا ان قوتهما تقصر عن مباراة القارب في جريهِ السريع فمال ادريان ببصره ليرى موقع البارجة الا ان الضباب كان يغطي الافق ويحجبها عن العيون

الفصل الرابع

(الحرب في البحر)

ورأى ادريان على بسالته ان الوقوع بايدي اولئك اللئام آخر

العهد بهِ في الوجود فعظمت عليهِ الميتة قبل اوانها وفي ابَّان السير في سبل النجاح فدفع بهِ اليأس الى اجهاد النفس اجهاداً عظيما حتى كان الزورق يندفع بهِ كالسهم فوق العباب ولكن قارب اللصوص كان اسرع خطواً حتى لم يبقَ بينهما من مجال رحيب فنهض الربان الى البارودة التي كان قد اعدَّها من قبل وصوَّبها على القرصان فدوى طلقها في الفضاء وعظم وقع اثره بين اللئام حتى هرجوا ومرجوا ووقفوا عن التجذيف نحواً من دقيقةٍ كانت هي الغنيمة التي سرَّ الربان بالانتفاع بها على ان الاشقياء عادوا الى التجذيف بنشاطهم المعهود ولكن ذلك لم يكن ليريع ادريان بل ضحك منهم هازئاً بهم لانه صار في مأمنٍ من طائلتهم لاقترابه من البارجة ذلك انه سمع صوت الامواج متكسرةً عن جوانبها ورأى شبحها خلال الضباب وهي متجهة نحوه وما عتَّم ان عرف البحارة بمجيء رئيسهم حتى هتفوا بالبشائر فكان هتافهم على نباتهِ سبباً في ضياع القصد من سفرتهم وذلك ان القرصان لما شعروا بالاقتراب من البارجة اداروا قاربهم نحو جزيرتهم وولوا مدبرين لايلوون على شيء ولم ينظر البحارة اليهم لاشتغالهم برجوع رئيسهم سليماً معافى وكفى القرصان فوزاً انهم عادوا الى مقرهم عارفين بوجود البارجة على مقربة منهم

وكان روبرت ستانلي قائماً في الخدمة فلما دنا زورق الربان من جانب البارجة حياهُ قائلاً — اهلا وسهلا ومرحباً بالربان النبيل

— وبك لتأهيل ولك الشكر أيها النائب الكريم الا ترى انا لو اضعنا دقيقة واحدة لانقضى الامر

ثم صعد الى البارجة وتنفس الصعداء من هول سفرته واخطارها

وقال ذهبنا الى عرين الاسود بل الى مغارة اللصوص وقد عرفنا موضعهم بالتاكيد

وكان ادريان عارفاً بشأن ذلك اللص الجريء وانهُ لا يصبر على الضيم ولا يحتمل الاهانة بل يعتدّ نفسهُ اشد مراساً واعظم شأناً من ان تنالهُ الجمهورية بسوء ولذلك فهو لا بد ان يأتي يناجز البارجة ويرى ماذا يكون ولهذا اسرع الربان بعد ان حيتهُ البحارة الى اصدار الامر باعداد الاهبة للكفاح والزام كل من القوم مكانهُ وان يقوم رجلان في اعلى السارية ليرقبا اطراف الجزيرة لانهُ حسب ان العدو يأتيهِ من الجهة الاخرى منها فاتجه بالبارجة صوبها واذ كان عارفاً بما دون الجزيرة من الصخور والتيار سار نحوها بملء التؤدة والحذر وما زال مراقباً حتى سمع الرقيب يقول : نرى شراعاً ولعله مركب اللص وما عتم ان تبينوه فاذا هو اكبر حجماً من البارجة وقد نشر القلوع ووافقتهُ الريح

ولم تكن المدافع لذلك العهد قد بلغت من الكمال والاتقان حدها اليوم ولهذا لم يعتمد المحاربون عليها يومئذ بل كان نضالهم قائماً بقوة الذراع وشدة الحول وعليهما كان المعوّل في النضال ولذلك توقع القوم ان يكون قوام الامر بهما

وكان الربان ادريان (هذا اسمهُ المعروف به بين البحارة على ان القوم في وطنه يعرفونه بالكونت دوفاركاس) يحب نائبهُ روبرت ستانلي ويرى فيهِ دلائل الشهامة وهو فتى جميل الخلق والخلق انكليزي الوطن كما يدل اسمهُ وانما جاء فينيسيا لاسباب عائلية واختار

الخدمة البحرية فيها فنال منها نصيباً

فلما كانت ساعة الاهبة وقد رأى القوم مركب الاعداء متجها صوبهم نادى ادريان بنائبهِ قائلا — اذا مت يا روبرت فاليك تنتهي الامرة في البارجة وانك لا تنساني صديقاً وتذكرني بما عرفت مني

- ولكنك لا تقتل يا اشرف الرؤساء بل تبقى حياً حتى يقضي الله امرا كان مفعولا

ثم شغلت افكارهما بما حولها من قضاء الواجب

ساعتئذٍ رفعت راية فينيسيا وانعم القوم النظر ليروا الراية التي يرفعها العدو ولكنهُ لم يبد شيئاً حتى صار على قيد مئة باع من البارجة فنشر راية سوداء في وسطها رسم جمجمة وعظام

واعقب ذلك اطلاق البنادق فابتدأ القتال لان الفريقين كانا يتوقعان هذا اللقاء ويرغبان في المناجزة فلا يتأتي عنها الا الاسراع في العمل وما مضت على ابتدائها الا دقائق معدودة حتى تخاصر المركبان ودخل القرصان البارجة وكان زعيمهم لابساً افخر الثياب الشرقية المزدهية بالذهب ومدرعاً بالفولاذ اما اتباعه فلم يكونوا على شاكلة واحدة مما يدل على انهم اخلاط يختلفون في الجنس واللغة

فلما صار اللص على البارجة رأى هنالك جمهرة البحارة وفي مقدمتهم ربانهم وكلهم كأنهم البنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً وبدأت الحرب محتدمة شديدة الهول لا يلوي الخصم فيها عن قرنهِ ولا يسأل المغلوب فيها امانا لان ابة الغالب ان يقتل المغلوب . واذ عرف الزعيمان بعضهما تكافحا وكان كوزمو اطول من قرنهِ قامة واقوى عضلا الا ان

ادريان كان خبيرا بضرب السيف ماهرا في ابواب الحرب

وكرّت الساعات على المتحاربين حتى خيّل للناظر ان القرصان ظافرون بالبحارة واذا بشرذمةٍ من متطوعة الانكليز في خدمة البارجة قد برزوا تحت امرة روبرت ستانلي مدججين بالسلاح الابيض فهاجموا القرصان وردوهم على اعقابهم الى مركبهم وشرعوا يتضاربون بالرصاص حتى اشار ادريان لهم فحملوا على اللئام حملة هائلة تهتز لها راسيات الجبال فهلعت لها قلوب القرصان وصبروا صبر الرجال ولكن اعيتهم الحيلة تلقاء البسالة التي اظهرتها بحارة البارجة بليورفون

فلما رآهم كوزمو وقد خارت قواهم ناداهم قائلاً جدوا فانزلوا راية فينسيا الخافقة واذكروا اننا قضينا اثنتي عشرة سنةً ظافرين ولم نخسر ولا مرة واحدة فلا يجمل بنا ان نغلب الآن اذا كنا رجالاً

فصاح به ادريان قائلا صه ايها الخائن النذل سلم تسلم ياضربة هائلة على الوطن اخسيء وطأطيء راسك خشوعا وذلة

فلما سمع اللص هذا الكلام لم يبد جوابا بل برقت عيناه السوداوان وتصعر خده احتقــارًا لمخاطبه ورجفت شفتاه غضباً وهجم على قرنه يريد بهِ سوءا ولكن الربان كان محاطا بالرجال ودون اختراقهم ضربات هائلة لم يقوَ اللص على اقتحامها سيما وان ادريان كان على تمام الاهبة ورأى كوزمو ذلك وان القرصان اللاذين به سيغلبون فهالهُ الرزيئة وزادته جراءة وبسالة فشرع يضرب الحسام ذات اليمــين وذات اليسار وصاح برجاله صوتا لايفهمه الا هم فلحق به منهم بضعة مختارة نزلوا واياه الى باطن المركب ونظرسائر القرصان الى زعيمهم فلم يجدوهُ

فخارت قواهم والقوا بسلاحهم مستأمنين

اما ادريان فحدثته نفسهُ بالهول وعظيم المصاب ومع ذلك فانه انحدر ببضعة من رجاله الى الحجر المعدَّة للص وجماعته فلما صار اليها لم يرَ شيئاً بل لبث هنيهةً كان ليس ثمة من بشر ولكن ما عتَّم ان سمع صراخاً ثم برزت غادة الجزيرة من احدى هاتيك الغرف ووراءها كوزمو الخبيث فلما وقعت العين على العين اجفل الشقيّ الى الوراء ثم شرع يلعن ويشتم بصوت جهوريّ وارتدَّ الى حجرته وأقفل بابها وراءهُ فحاول القوم فتحهُ ولكنهم لم ينالوا ارباً لان اللص اوصده من الداخل

اما الغادة الحسناء فانها وقفت هنيهة كالمأخوذة ثم نظرت حواليها محتارة وجثت على ركبتيها لدى الظافر فلما رآها قال لها انهضي ايتها السيدة فان هذا المقام لا يليق بشأنك الا تذكرين انك خلصت حياتي حين اذ كنت في الجزيرة فهل يخطر لك اني كنود ابى الله الا ان اضع بارحتي بل نفسي فداء عن ذاتك الكريمة .

وما اتي الربان على آخر كلامهِ حتى سمع صوتاً دوت لهُ اطراف القاعة يصيح بمن فيها قائلاً اعتلوا الظهر فان مركب اللصوص آخذ بالغرق وكان المنادي هو الضابط الانكليزي روبرت ستالي ويالها من هنيهة ترتعد لهولها الفرائص ولا يضارعها الا نبأ النار اذ شبت على السفينة الماخرة العباب على ان الربان لما سمع بالغرق اخذ الغادة من ذراعها وصعد بها الى الظهر ومنهُ تسلق بها الى البارجة وكذا لحق به اليها سائر رجاله وكلهم لم يلتفتوا الى الاسارى ولكنهم رتضوا من الغنيمة بالاياب اما القرصان فخلعوا سلاحهم بعدما كانوا رموا بانفسهم الى البحر يطلبون

النجاة سباحة وانفصلت البارجة عن سفينة اللصوص وما ابتعدت عنها طويلا حتى غاصت تلك في الماء الى اقصى غوره ورأى ادريان ورجاله ذلك الغرق فحسبوا ان الاثمة قضوا بسفينتهم وان فينبسيا قد ارتاحت منهم الى الابد ذلك لانهم لم يخطر لهم ببال ان الاشقياء يتمكنون من اجتياز البحر الى مأواهم

الفصل الخامس

(حفلة الظفر)

ومرّت الايام فشاعت الانباء ان اللص البحري المشهور قد اصبح رفاتا هامدا بعد اذ تمادى في الشقاء والغي وان عصابته تفرقت ايدي سبا وكان مبلغ هذا الخبر المظنون به صدقا بحتا قارب من قوارب البارجة بارحها ليخبر بما كان لان الربان لم يستطع ان يمخر البحر رجوعا الى العاصمة قبل ان يصلح ماعطب من السفينة

فكان الناس ينتظرون عودة البارجة سالمة ظافرة ورجوع ربانها مكللاً بغار الظفر وعيونهم لاتمل من مراقبة البحر والتطلع في منتهى الافق انتظارا لاوبة الغانمين حتى ان الحكومة ارصدت جماعة من المراقبين يرصدون البحر لتلك الغاية الى ان تسنى لهم بعد ايام ان عالموا القوم بظهور البارجة الظافرة فشرع الناس يتحدثون بما يكون من الحكومة وما ينتظرون من الحفلة والتحدث بلزوم الواجب ادائها للظافر ولبطانته تحدثا خفياً فلما ازفت ساعة الملتقى غصّت شواطيء البحر وازدحمت البلدة بالناس على ان معظم الزحام كان في الساحة الكبرى وعند الابراج وعلى مقربة

من السلم العظيم المؤدي الى قصر الدوج

وانما غصّ الموضع وما يليهِ بالعظماء والصعاليك والاغنياء والفقراء والتجار والعملة والبحارة والزراع والصناع من الرجال والنساء لان الظفر باللص واتباعهِ القرصان يعود بالخير على بلادهم ويدفع عنها طائلة الاذى ولذلك يحسب ادريان محسناً اليهم اجمعين فالترحاب به وبمن قاتل تحت لوائهِ من فروضهم الاولى

الا ان معرفة الجمهور لجميل المحسنين من المأمورين يثير من الحكومات الجائرة قاعد الحسد ويدفع بالذين لم يملكوا عواطف الناس الى الخوف على انفسهم والحذر من مفاجئة الطواريء ٠ وكان اشد القوم حذرًا اعضاء مجلس العشرة ومجلس الثلاثة على ان مظالمهم ابهظت عاتق الاهلين وبلغت حتى يومئذٍ مبلغا هائلا لم ينجُ من التحذر منهُ ذات الدوج الجالس على عرشهِ وكأن ذلك اليوم البهيج اثار من الناس خفيّ الانين من ظلم ذيالك المجلس ولكنهم لم يبوحوا بالشكوى خيفة لبلوى بل كانوا يتناجون سرا ببعض ما في النفوس

وانكى من ذلك وانكد انهم كانوا يخشون من طائلة التحدُّث بنبأ اليوم حتى اذا اجتمعوا كما مرّ التفتوا ذات اليمين وذات الشمال فان رأوا غريبا لم يأنسوا اليهِ سكتوا عما في اللسان وان وجد الصحاب الجوّ خاليا لهم نطقوا ويا لله من مثل هذه الحالة التعيسة

وكان بعض الاخوان قد تألبوا حول حانةٍ ولما لم يجدوا بينهم غريبا يخشون سعايتهُ شرعوا يثنون الثناء الجميل على بسالة ادريان ونائبهِ الانكليزي روبرت ستانلي ويمدحونها وهم كذلك واذا برجل عظيم

امامه لابس ملابس فينيسيا وعلى وجهه برقع يتدلى ليستر هيئته على ما كانت عادة هاتيك الايام فسكت القوم تهيبا من سعايته ورأوا من خطواته التؤدة والهدو فعرفوه رجلا من ذوي الامر والكلمة النافذة ولكنهم لم يستطيعوا سبر غوره لستر محياه واذا به قد نظر الى جمهورهم بعيون وقادة ثم مال عنهم الى الزوراق البندقية الشهيرة وهي تعد بالمئات وتملئ الاقنية والترع وبعد اذ انعم بكل ذلك نظرًا مال الى رجل واقف على مقربة منه وكان احسن بزة من سائر الوقوف وفيه ملامح الرجل القاضي في البحر وقتاً طويلاً فقال يخاطبه

— كان هذا اليوم من اعياد فينيسيا فما هو ياترى السبب الحامل جمهورها من الدوج والامراء حتى الاداني على الاحتفال

— كأنك غريب عنا فلا تدري ما كان فاعلم انهُ قيل ان الربان العظيم النبيل ادريان عائد الينا ظافرًا بما غنم من كوزمو اللص البحري المشهور

فلم يجب الغريب عن هذا الكلام بشيء ولكنهُ استند على جدار البرج

فما مرت به بضع دقائق حتى الفته الانظار ولم يبق موضعاً لملاحظة الناس الا ان بعض الملاحين كانوا يرون به وتأخذهم الدهشة من مرآه ولكنهم لايعرفون لذلك سببا

الا ان رجلاً من الحضور كان يراقبه شديدًا ويلاحظ حركاته وسكناته مندهشاً بها معجبا لها وكان الرجل من بحارة الزوارق وهو ربعة ممتلىء الجسم قويٌّ العضل بارق العينين عمرهُ يناهز الاربعين فقال يخاطب

نفسهُ بصوت مسموع - لقد تخلصنا والحمد لله من ذلك الاثيم الذي خرب بيوت كثيرين وكم كنت اتمنى لو ان الربان جاء بهِ حياً الى هنا لينال جزاءَهُ شنقاً. ولكن لو كان قد نجا فان ذلك ليدل على انهُ ولد للمشنقة هوهوهو

فما اتى على عبارته حتى تقدم اليهِ غير واحدٍ من البحارة وقال له ويك من انت لتقول كذا عمن هو خيرٌ منك

فنظر الرجل الى الذي اعترضه بازورارٍ وابتسام ومال عنهُ متجهاً صوب الملثم فلما صار اليه مسهُ بذراعه واذا بالغريب قد التفت اليه مغضباً وقال - ماذا تريد

فاجابه وقد اشار الى جماعةٍ من البحارة كان الذي عارضهُ منهم - اذا كان اولئك القوم من بطانتك فاني انصحهم ان يحترسوا في كلامهم لان الصمت من الذهب

ثم ذهب ودخل الحانة وامر بالخمر فشرب اما الغريب فسأل أحد الواقفين بجانبهِ قائلاً - من هذا النذل الجريء

فاجابه المسؤل همسا انه نوما بوناتي الملقب بشجاع فينيسيا والمعروف بحرية الكلام

قال ذلك وسار مبتعدا عن مخاطبهِ اما الملثم فاشار الى الذي عارض الشجاع في حديثهِ اشارة خفيَّة ادرك الرجل منها انهُ مأمور بالاقتراب الى مولاه فلما صار الى قربهِ صاح به الغريب قائلا-

- اذهبوا ايها اللئام بعيدا والا فان فينيسيا كلها تعرفكم اليوم

فذهب الرجل صامتا وتبطَّن حلقات الناس ولم يمضِ الزمن الطويل

حتى بلغ الامر لجماعته واذا بهم قد اختفوا عن العيان

ثم علت الصيحة ونفخ في الابواق ودقت الطبول ورفعت راية الدولة كل ذلك ايذانا بوصول البارجة الظافرة الى اول الترعة فتطاولت الاعناق والرقاب لمرأى بليروفون تسير وئيدا وهي مملوءة في كل جوانبها ورجالها بملابسهم الرسمية على ظهرها ينظرون الى معدات الترحاب بهم ويحسبون انفسهم مستأهلين هذا الاكرام الوطني وبينهم ربانهم ادريان ونائبه روبرت ستانلي وسائر الطائفة وفي صدر مجتمعهم الغادة الحسناء يتألق جوهر جمالها على ملابسها الفاخرة فتزداد بهاء في عيون الناظرين سيما وانها الغنيمة الوحيدة المقتنصة من ايدي القرصان

وما زالت البارجة تتخطر في سيرها حتى دنت من القصر الاعظم فرست واذا بالدوج تحف به عظماء الدولة وسراة القوم قد انحدر من مقامه السامي الى الدرج ترحابا بالظافر الكريم وكان هتاف الجماهير شديدا يصم الاذان فدنا ادريان من رئيس حكومته وسلم خاشعا متضعا وفاه بكلام محكم كان مؤداه تسليمه الاسيرة ليد المولى

غير انه ما نطق بهذا الكلام الا وقد لاحت على وجهه ابتسامة عن غير رضى بحيث ذكرها القوم بعد حين ذكرا سيئا وبعد ذلك كان القوم يزدحمون ليروا الفتاة لأنها لم تكن ملثمة على غير ما فعل سائر النساء الموجودات وكان بين المتفرجين المزدحمين ذيالك الغريب الملثم فلما وقعت عيناه عليها قدحت نواظره نارا حتى لو رأته الحسناء لادركت من تحت لثامه ان بلاياها لم تنقض وان الازمة شديدة الوقع تجر وراءها ذيلا من الكوارث طويلا

وكان في مصاف الظافرين روبرت ستانلي وسليم ومن يليهما من الضباط والقواد والعسكر والبحارة وكلهم فرحون بما نالوا وما لبثوا ان وطئوا البر حتى تفرقوا بين الجماهير يطلبون دورهم بمن فيها من الاعزاء المنتظرين

اما الغريب الملثم فلما رأى الجمهور قد انقضى من حوله وهو منشغل عنه بشؤونهِ سار متمهلاً حتى دخل احد الزوارق فمخر العباب بهِ بعيداً عن هاتيك المواضع المملوءة بشراً وضوضاء ولكن ابتعاده عنها لم يقصر شجاع فينيسيا نومابوناتي عن ملاحقته وكان مقصد الغريب قصراً قديما يخص احدى العيال المشهورة وقد كان مرتعا للانس ومضمارا للفخر ابان تبوئه من صاحبه وهو رجل من الامراء العظام تالدا وطريفا الا انهُ اجترم على الحكومة جريرة الاستتار ضدها فلما كشفت طمة مساعيه وعزمت الدولة على اخذهِ عرف بالامر فاختفى في العاصمة ثم فرَّ هاربا لايلوي على شيء فبقي القصر مقفلا مهجورا والناس لايجسرون على الاقتراب منه فتداعى بعض الشيء وكان تجاه هذا القصر رصيف صغير فلما صار الزورق اليه خرج الغريب الملثَّم من قاربه وصرفه وظلَّ في موقفه صابرا حتى توارى الذورق عن العيان اما الرقيب فوقف الى جانب يرقب الغريب حتى رآه دنا من باب سرّي ففتحه ودخل فاحتار وأدهش وقال في نفسه — ايكون ذلك واقعياً اتري اعيش لاجاب لذاتي نفعا فياعزيزتي باكيتا اترين يسعدني الحظ بالانتقام لك ويعود اسمك مشرفا فقد عرفتك ايها الخبيث واصبحت لهذا الآن في قبضة يدي

قال ذلك وعاد ناكصا على اعقابه كانه اكتفى بما نال من

نعمة الاكتشاف ولكنه لم يلتفت الى الوراء ليرى ما كان

الفصل السادس

(حادث مهم)

قبل ان دخل الغريب من باب السر مدَّ يده الى رفرفٍ صغير من فوق ذيالك الباب واخذ مصباحا واناره فاضاء بهِ ممرًا مقبوًّا فدخله حتى انتهى الى داخل البناء حيث كان باب كبير فلما دفعه انفتح فبانت له غرفة وسيعة في وسطها مائدة حولها نحوٌ من العشرين رجلا فلما رأوه نهضوا له على الاقدام فاخذ كرسيًّا وجلس ثم قال للقوم اجلسوا وملأ بعد ذلك كأسا من الخمر وحساها وقال ان عندي لكم عملا فما وراءك يامرو برتو

— اني لاعلم ان الشعب كارهٌ للحكومة وكلهم ينطقون بالشكوى ولكن خفية حتى ان عملة السلاح في دار الصنعة غير مرتضين وترى الناس على اختلاف درجاتهم ينغضون رؤوسهم استياءً من مجلس الثلاثة ويخال ان اقلّ اشارة تدل على الثورة لاتجد اولئك الانذال الا مرتعدين من هولها

— اذًا من العبث اهاجت القوم لعلهم يقلبون حكومة الظالمين ويديلون بها حكومة عامة تستوي فيها الحقوق فلا يتمتع النبيل بما يحرم منه الصعلوك

— كيف لا والامة صارت الى حالة الوهن الا ترى ان عيون الحكومة

يستجسون الاخبار فينقلونها و يرمون المتظلمين باسوء الاحوال واشد العقوبات

— اذًا لا يبرح البنادقة على حالةٍ واحدة وما انت ياجاكومو فقل هل ان مصباح الاشارة على حالهِ

— بلى وخفارة البرج المنفرد قائمة في الليل والنهار

— اذا اعلموا يارجالي ان الاعداء لنا بالمرصاد فيجب ان تكونوا حكماء كالحيات وودعاء كالحمام واحذروا ان تؤخذوا لان حكم المجلس فيكم لايرد

فوعد جميعهم بالحكمة والتاني ثم القى اليهم كثيرا من الارشاد ونهض فلحق جاكومو به فصعدا سلما ضيقا انتهى بهما الى قنة برج يشرف على الترعة الكبرى من كوةٍ صغيرةٍ فنظر الزعيم منها الى الماء والبر ثم حدج بناظره برجا للحكومة قديما

وعند ذلك اخرج جاكومو فتيلا مخصوصا ووضعهُ في النافذة فاشعله فضاء البرج لان الليل كان قد ارخى سدوله وكان موقع هذا البرج بحيث لايرى نورهُ من سائر قصور المدينة ودورها واذلك لم يرَه احدٌ منهم ولم يوجسوا من امره شرا وبعد اذ طفئت شعلة النور لبث الرجلان ينظران الى وجهة البرج القديم فابصرا منه نورا عرفاه جوابا لنورهما فقال الزعيم

— لقد احسن بانيتو خفارته فمساء لايقصرعنا ليلة لان دقيقة واحدة تكفي لضياع اعمارنا فهلمَّ بنا

ونزل بعد ذلك فلحق جاكومو بهِ حتى بلغ مقر الرجال فامرهم

بالتأني والحذر وتركهم فسار

وكانت المدينة لم تزل في رهج عظيم سيما وان القوم كانوا يصلون صلاة عامة ويدعون بمزيد النجاح وناهيك بان السيدات كن لايبرزن في النهار وانما يتخطرن في الليل متلثمات ومع كل منهن وصيفة تختارها اذ لم يكن من اللياقة بروزهن غير مصحبات وكانت تلك الليلة الباهرة كثيرة الزحام بهن لما في بروزهن من المشاركة لافراح الظفر فخرجن يتخطرن مرحا وهن ولئن تلثمن فلا يضيقن على الرجال معرفتهن بل ان منهن من يعرفها غير واحد من الرجال ويحدثها ولبعضهن غايات في الظهور والمعرفة فيبرزن بالغات الغاية من اجادة الملبس وضفر الشعر

اما الغريب الملثم فكان اطول الناس قامة وارسخهم قدماً وكان بعد خروجه من بين ذوية انه مال صوب الساحة الكبرى ووقف عند البرج الاكبر ينظر ماحوله وهو يتظاهر كانهُ لايرى شيئاً

وهو مفكر بذلك اذهش بغتة اذ راى تلقاء ناظره ذيالك الفتى الانكليزي البارع الجمال والشديد القوة الذي عرف نضاله اريد به روبرت ستانلي اذ انهُ لما انتهى من الوليمة الرسمية المعدَّة له ولرفاقه خرج يتخطر في الشوارع قبل ان اتى حجرته ولم يكن سيره بطيئاً متذبذبا كمن لايقصد بالتخطر شيئاً بالذات اما الغريب الملثم فانهُ لحق به وكله ابصار ترمقه حتى استوقف روبرت مرور سيدتين احداها طويلة القوام لابسة لباسا فاخراً ولكنها ملثمة اثاما لم يبق بعدهُ من مطمع لرئيها الا ان يحكم بالوهم وبما يرى من ضفائر شعرها منساباً على اكتافها بانها من الحسان وكانت الاخرى فتاة نحيلة القوام وهي ملثمة كرفيقتها

ومع ذلك فقد ظهر لروبرت ستانلي ان بين الاثنين فرقاً في المكانة والشأن لان في هيئة كل منهما شيئاً لايحيط به الوصف

فلما دنتا منهُ قالت الكبرى بصوتٍ رخيم لاتحجب بديع رنتهِ براقع اللثام — اي روبرت ستانلي الشجاع الذي ظفر باللص الجريء ما لي اراك كئيباً

فاجابها وقد بعث اليها بنظراتٍ تخترق الحجب لعلَّهُ يعرفها - انا لست بالظافر فيمن كان بلية فينيسيا بل كنت محاربا تحت امرة القائد البطل الربان ادريان الفائز باكليل الغار

فضحكت السيدة وقالت - ان البسالة لن تبرح حليفة الاتضاع ولكنني التمس منك عفوًا ايها السيد الانكليزي الكريم لئلا اكون واقفةً في سبيلك فأؤخرك عن الوصول الي عشيقتك المنتظرتك بفارغ الصبر

- ليس لي عشيقة ياسيدتي بل ان التي رفعت عينيَّ لرؤياها تعلو عني علوّ الكواكب عن الارض

— من امثالكم ان الضعيف قلبهُ لايغنم حبهُ

— الا تعلمين ايتها السيدة اني جندي تحت رحمة النصيب ولا حق لي ان انظر الى الشمس

- وهل ان السيدة المقصودة تعلم منك هذا الاحجام

- يعسر عليَّ القول بذلك لاني لم افصح بغرامي ولا بلغت مني الجسارة حد الاجهار به لنفسي ولكنني رأيت في الاحايين منها ابتساما لطيفاً وصادرًا عن رأفةٍ بي ولكن لعلها طبيعيةٌ فيها — قال ذلك وتنهد

— يسرني ايها الشاب ان اسمع لك قصتك لاني ربما اعرف الغادة الحسناء ولعلي اقتدر على اسعافك لديها لانهُ لايوجد في كل فينيسيا غادة يعلو نسبها عن حدّ اقتداري على معرفتها

— ولكنها عظيمة المقام جدًّا

— من يعلم — خذ الآن هذا المفتاح وبهِ تفتح باب حديقة الدوج وهو القائم تحت قنطرةٍ قرب الترعة فاذا صارت الساعة الثانية عشرة من هذا الليل فتعال الى هنالك تجد من يقودك اليّ لعلي اقتدر على معونتك اما كلمة السر فهي — الشجاع يستحق الحسناء

فاخذ روبرت ستانلي المفتاح وتمتم كلاماً ربما هو لم يفقه لهُ معنى ومن ثم تركته السيدة وتربيتها وسارتا بين الناس واصبح مما جرى لهُ ضائع الرشد خائر القوى لايدري كيف يفتكر اوماذا يعمل حتى مضت الدقيقة والدقيقتان فثاب اليه رشدهُ ولا غروَ فان الهوى يسلب الذكيّ عقله والقويّ حيله ومع انا عهدنا الرجل هماماً في الملمات رأيناه سليب الفؤاد في مجال الغرام

وكيف لايسقط في يده ويدهشهُ الامر وهو منذ سنةٍ قد هام بحب غادة عليّة المقام حتى انها تحسب في مرتبة الاميرات العظيمات وقد كان تعرُّفه بها قبيل رحلته وقالوا لها عنه انه نائب ادريان فنال لديها شيئاً من الحظوى اذ كانت تحدثه في الاحايين فكان يقص عليها من وقائع حياته سمرًا ويتلو على سمعها من اخبار تجنده نتفاً يرتاح اليها خاطرها الا انهُ مع ذلك لم يجسر على مفاتحتها باقاصيص الغرام او ان يشكو اليها تباريح الهوى لما علم من ان الحسان اللواتي تعلو بهن المكانة الدنيوية

تكتفنهن شؤون خاصة بهن لايتاح الاقتراب اليها بالعاطفة وقصارى القول انهُ حسب المحبوبة كسائر الملكات والاميرات اللواتي يتجه الهوى بهن في غير مجراه الطبيعي

فلما كان ذلك الموقف خفق قلبهُ التهابا وحنّت اضالعه اشتياقاً اذ اتسعت في وجههِ الامال فحلت لديهِ الدنيا وتصوّر الوجود بملاذهِ ولكن لكل شيءٍ افة من جنسهِ فارتياح افكارهِ الى السعادة المحسوبة كان محدوداً اذ تصوّر انتهاء الامر بهِ وبحسنائهِ الى الاجتماع وتبادل عبارات الحب والولاء واثارة عواطف الغرام الى حدٍّ لامطمع لهما بتجاوزه

كيف لا وبينهما برزخ يفصل المقامين بعضهما عن بعض فلا يصل الواحد الى الاخر مع سلامة البقاء على الدرجتين ومع هذا فان روبرت استسلم لاحكام القدر وقال في نفسهِ ان ساعة الوصل تنسي مرارة البعاد وان الدنيا لاتنال سعادتها الا باقتحام الصعاب وكأنه تمثل بالقائل

لاستسهلن الصعب او ادرك المنى   فما انقادت الامال الا لصابرِ

فاندفع الى عقد العزيمة على الذهاب لموضع قصدهِ واذ سار بعض خطواتٍ تحرك الغريب الملثّم من موقفهِ وكان يراقب المحكي عنه منذ اجتماعه بالسيدتين ولم يغب عن ناظره شيءٌ من الحوادث ولكنه لم يكن على السمع من الحديث بل ظلّ ذلك امرًا مكتوما لولا ان الغريب كان عارفا بعادات البلد واحوال سكانها بحيث لايخفى عليه مودى ذلك الاجتماع وان مثل هذا الرجل يسر ويهتم باكتشاف الاسرار ومعرفة الرجال والنساء كانه يجني من ذلك فائدةً فلما رأى ما كان صمم النية على معرفة تلك السيدة التي ضربت للجنديّ موعدًا مع انه

مجهول المكانة خفيّ الاسم فلما مشى الملثم عارضه رجل آخر كانهُ يقصد في المعارضة امرًا فمال عليه مغضباً وكان ذلك الرجل هو شجاع فينيسيا المسمى نوما بوناتي المشهور ببسالتهِ وغرائب اعماله اما الغريب فقبض على ذراع الرجل وقال

– ماهذه المعارضة

— لا لا اريد المعارضة وانما رأيت ان ذلك الرجل لايريدك ان تلحق بهِ فقصدت ان اقف في سبيلك دونه

فوضع الغريب يده على قبضة حسامهِ وقال – ويك ايها النذل الجريء فانك ستؤدي حسابا عن فعلتك هذه

— صه ليس هذا وقت هذه الاعمال ولا مكانها ولكننا سنجتمع مرة اخرى ايها السيد الغريب وحينئذٍ لك ان تجرب ضرب الحسام او وخز الخناجر اما الان فاسكن ايها المجنون. ثم خفض صوته وقال هو ذا الثلاثة قادمون

وبعد هذا مد يده وجر مناظره ورغما الى ظل العمود فرأى الغريب ثلاثة من الرجال ملثمين بالمخمل الاسود وهم متجهون صوبهُ بقدمٍ ثابتة وهيئة الامر فهمس باذن صاحبه قائلاً

— وهل انت على ثقة من انهم من ذكرت

— اني لعلى تمام الثقة

وقبل ان تمّ الكلمة تركهُ واراح بخفةٍ ولياقةٍ نحو الجمهور فصار بينه والغريب مندهش لخفته وسرعة حركاته وكان يرقب الرجال الثلاثة بعينيه حتى صدّق رواية الشجاع اذ رأى القوم يتفرقون. كلما اقترب الثلاثة

منهم ولكنه لم يرَ بشراً يدنو منهم ويتحبب اليهم بالدعاء بل كان الناس يتبعدون عنهم كأنهم المصاب بمرض معدي يخافون و بالته مما يدل الدلالة الصريحة على وقع خشيتهم من القوم موقعاً كبيراً تظهر فيه مظالم حكومتهم باشنع مظاهرها ومع اجفال الناس عنهم وفرارهم منهم كان الغريب الملثّم يتأثرهم من بعيد كي يخلو لهُ الجو معهم ويحدثهم على انهم لم يشعروا بسيره وراءهم وانهُ يترصد حركتهم لانهم كانوا يتحدثون حديثاً مهمّاً اشغلهم حتى بلغوا الرصيف

وكان الثلاثة الكونت فيلاس والبارون ليون كودينو واللورد مونتسينا

ولا خفاء ان ذلك اليوم كان موجباً لفخار الدوج مزيداً في مكانته لما احرز فيه من ظاهر النصر بالعدو المظنون به مغلوباً وكان اولئك الرجال الثلاثة يكرهون الدوج ويحسبونه عدوّاً لدوداً ولذلك لم يسروا بانتصاره ولا طابت خواطرهم بفخره ولئن كان ذلك عائداً على الدولة فانما امتدت كراهتهم من رئيسها الى نجاحها على يده على انهم لم يكرهوا منه الا رئاسته ولئن قضى السنين الطوال كالآلة الصماء بين ايديهم لايصدر الا عن ارائهم ولا يتبع الا اهواءهم على رغم من ارادته لان في نفسه كبرًا عن الطاعة لولا الاضطرار لان امراء فينيسيا من الدوكات والدوجات لم يكونوا الا منفذين قرارات المجلس ذات المكانة سواء كانت البسطة لذات العشرة منها او الثلاثة وكانت هذه الاونة داينةً لسيادة المجلس الثلاثي وزعيمه الكونت فيلاس ولذلك كان هو لآمر الذي يعضده رفيقاه بمن يشد ازرهم من سراة البلاد وامرائها لا نعرا منهم كانوا من ذوي الاثرة والنفوس الابية وانهم من حزب الارج ومن [illegible] عامة

الشعب الا ان هذه التحزبات لم تكن قد اودت بهم الى الخلاف الظاهر والانقسام بل كانت كالحزازات في الصدر تظهر اثارها في الاحايين وتبقى خفيةً لا عن المستبصرين

اما الرجال الثلاثة فكان مؤدى حديثهم هكذا

قال فيلاس — ان الكونت ادريان دوفاركوس ظاهر الشجاعة وفيه كبرٌ والمامٌ بشأننا فمن الواجب علينا ان نقص من جناحه ولكن الوقت بيننا لان هذا الجمهور الغبي يدعوه كهذا الحين بالبطل ومع انه غنيٌّ فقد زاد غناهُ بما كسب من اسلاب جزر اللص فمن الواجب علينا ان نسعى باكتساب شيء من غنائمه

فاجابه البارون ليون كودينو— اصبت لان جيوبنا كادت تخلو من امتلائها المعتاد — هلمَّ بنا الى الدار لان الهواء قد ترطب ولا ارى ما يزيل اثرهُ الا شرب كأس من معتقات خموري ولكن من هذا الآتي

وكان الرجال الثلاثة قد اماطوا اللثام فلما ابصروا بالغريب قادماً اعادوه واذا بالرجل الملثم وقد عرفناة قد دنا بقدم ثابتة نحوهم وانحنى امامهم محترماً مسلماً ثم نظر الى الكونت فيلاس منعما فيهِ نظره فقال الامير لهُ غاضباً

— ويك كيف تعترض سبيلنا اعتراضاً غير اديب ونحن من الذين لا نخاطب الا بالعرائض ترفع الينا

— ما احسن هذا الملتقى ايها الكونت ولكن هل نسيت صديقك الدوك دوما الاسبينا (قال ذلك همساً باذن الكونت)

— يالله كيف انساه واين هو الآن وما شأنهُ

فادار الغريب الملثم ظهره للرجلين الآخرين اذ رآهما يشغلهما الحديث ثم اسرع فرفع اللثام عن وجهه وقال

— وهل غيرتني عنك السنون يافيلاس وانكرت الايام معرفة صوتي فصرت مجهولاً من اخص الاصدقاء وقد ابى موطني ان يعرفني على ان الدهر بالناس قلّب وقد مرّت علينا ثلث عشرة سنةً وحقها ان تنكرّ المعرَّف

— فصاح الرجل مندهشا يستحيل عليَّ التصديق

— بل الامر كما ترى واني ذيالك المنبوذ الهارت الموعود قاتله او القابض عليه بخير الجزاء واني لعارفٌ بما ينتظرني من الموت الزؤام اذا عرف امري ولكنك يافيلاس تعرفني اني انا هو لدوك دومالاسبينا العدو اللدود للدوج الحاكم واني صديقك المخلص

وسكت الملثم هنيهة ريثما ادرك من المخاطب تردده عن تصديقه وكان عارفاً باطواره فاستأنف الحديث قائلاً

— ومع اني شريد طريد والحكومة تريد اقتناصي وقد خربت قاعة اجدادي ولكني لم اسقط لان قوتي ما زالت عن حدها اوفرة غناي وقد صممت ان اكافيء بالمال الكثير من يسعفني على قضاء الارب الذي جاء بي الى فينيسيا

فلما سمع الكونت فيلاس هذا الكلام اخذته هزة الطرب لما وقر في نفسه من حب المال وبسم للمنبوذ سروراً واحتفاءً وقال بعد اذ مدّ يدهُ لمصافحته -

— لقد طالما عهدتك جواداً تتدفق راحتاه بالدرهم والدينار فما ترى

مهمتك التي عزمت على الانفاق عليها كثيرًا

– سأبديها لك اذا فسحت لي في مذاكرتك على خلوةٍ من الناس

ويعلم القراء الكرام ان هذا المنبوذ كان من امراء المملكة العظام وكان ابوه دوجاً يتولى الحكومة فلما قضى وتولى الدوج الحالي نهض ابنه هذا الشقي مؤتمرا على خلع الخلف ولكن حبطت مساعيه فغادر البلاد ظاهرًا واقام يعبث فيها فسادًا على ما مر من الحديث

وكان من جملة خبائثه كسوء فعالهِ انه اختطف ابنة الدوج صغيرة من يد المرضع ورمى بها الى الترعة الكبرى وهي حينئذٍ في الثالثة من سنها

فلما قال ذلك الكلام لفيلاس وقد وقف به فادهشه اجابه ذلك الامير قائلاً — انك تعرف كلاً من رفيقيَّ كودينو ومنتسيا وكلاهما خليقان بثقتك

وهل انتم اعضاء الندوة

— هو كذلك – وقد خرجنا نروّح النفس بعد ان ادبنا لاياب ادريان ظافرًا

– لعنة الله عليه وعلى ذويه فاني ساعٍ في قبض روحه

— ولكنه صديق الامة وقد ظفر بهلاك اللص الشهير بضربة فينيسيا

— أخطأت ايها الكونت حقق بي تراني حيًّا مرزوقا ولا اكتمك اني انا هو كوزمو اللص

ولا خفاء ان اباحة اللص الجريء باسمه ونعوته والاجهار بمساويه الجمة لايتأتى القول بهِ حتى يكون القائل على ثقة من صداقة السامع

وقد عرفه اللص انه من المسرفين المترفين الذين تدفع بهم الخبائث الى الانفاق فيرون جيوبهم فارغة وايديهم قاصرة ولا يجدون مجالا لاملاء الفراغ الا باقتناص المال حلالاً او حراماً وناهيك بالامير هذا انه كان من المقامرين الذين لايكثر المال عليهم بل ينفقون منه جزافاً

ولقد كان شأنه في ايام الدوج السابق مجملاً لبقاء ثروته حتى يومئذٍ غير مشوبةٍ بالقمار ولذلك كان الرجلان صديقين ودودين

ولكن ماعتم ان تحولت الرئاسة في القوم الى الدوج الحالي وان ذهب مال هذا الامير هدراً على موائد الميسر والخمر والخلاعات فاصبح يخترع الاساليب لحشد المال

فانشأ له بين الناس خوفاً ترتعد من هوله الفرائص فكان ذلك كالحبائل تنصب لاهل الثروة واليسار ينتزف منهم ماشاءت اطماعه او يذهب بهم الى حيث الا ان الخوف المضارب اطنابه في افئدة القوم لم يبق مجالاً لاغتصاب المال بل كان الخائف اذا اوجس شراً جاء بالرشوى الى هذا الامير القدير وجعلها تحت موطيء قدميه تقدمةً ولطالما وردت الاخبار الى بعض لاءمين الميسورين واخص منهم اليهود الذين كانوا يزدادون ثروةً وغناءً تنبئهم بوقوعهم تحت طائلة العقاب فيتسارعون الى الاداء راضين من الغنيمة بالاياب ذائدين عن حياتهم بما ملكت ايمانهم

وكأن حديث الغريب الملثم قد استهوى الامير فالاس (او فيلاس) واستولى على رشدهِ وتملَّك من نفسهِ ميلها فنظر الى رفيقيهِ ليرى شأنهما واذا بهما خائضين عباب الكلام فاقبل على صاحبه يقول

— الست تخشى المخاطرة بنفسك في المجيء الى فينيسيا على هذه الصورة

- لا لاني اعرف من الناس انهم واثقون بموتي فلا يخشون بأسي ولذلك لايضعون عليَّ الارصاد والعيون فاشطح وامرح على ما يشاء خاطري واذا رآني غير واحدٍ من الناس حسبني من السياح الغرباء الذين يجيئون بلدنا لترويح النفس والتفرج على غرائبها واخصها الاحتفاء بدخول الظافر الموهوم

- على ذكر هذا الرجل المفتخر اسألك اذا كنت تعرف من هو

- سمعت عنه اشياء جمة كلها ابهام

— هو ادريان امير فاركاس الذي وعده الدوج بقصرك ومنصب امارتك على مالاسبينا متى فاز بك

فاسودّ وجه الشقي اشمئزازا ووجم عن الجواب ثم قال

— اذاً سيحاولي الانتقام لامرين اما الآن فاراني اطلت عليك وفصلتك عن رفيقك فان شئت قل لي متى تتيسرلي رؤيتك في دارك ومن الان ليوم او يومين استاجرلي دارًا

ــ هلاَّ تشاء ان تتعشى هنا هذه الليلة ومن ثَمَّ تشاركنا في المقامرة على اني اعرّف الحضور بايّ اسمٍ شئت ان تنتحله

ــ ساكون بين يديك بعد ساعة لاني ذاهب لاملأ جيوبي مالاً

ــ لا باس على ان يكون الاجتماع في الساعة الحادية عشرة في قصر فالاس اما انا فاذهب منذ الساعة لزيارة عروسي لاني لااكتمك ان الدوج يبغضني شديدًا ومع ذلك فهو مكرَهٌ على اعطائي ابنته بيانكا عروساً

- وهل هي حسناء

— لااجمل ولا ابدع واني بزواجي بها افوز بعضد الامراء والعظماء من الفئة القديمة فأصير بعده' دوجاً

ان في امرك عجباً لان الحسناء في ابان شبيبتها وانت قد وخط الشيب شعرك

— لم يتقدم لمباراتي في خطبتها من كان احدث مني سناً ولكن دعنا من هذا وقل لي هل يمكنك ان تقرضني بعض المال في هذه الليلة لاني في امس الحاجة الى قاضي الحاجات

— حباً وكرامةً لكن ان شئت ان تذكرني فاسمي الكونت زيجي من بارما

ثم افترقا

الفصل السابع

(الملتقى)

لطالما اشتهر الاسبانيون والايطاليان بصيانة اسرارهم والستر في اعمالهم والاخفاء في مقاصدهم حتى كادت تضرب بهم الامثال و يومئذٍ كان الايطاليان يزيدون على تلك الخلة الموروثة بما كسبوه من حب الدسائس والحيل اما روبرت ستانلي فقد ساكن البنادقة طويلاً واختبرهم فعرف ان الحيلة والخديعة قوام حياتهم ولذلك صار بحيث لايدهشه ما يعلم منها ومع ان كثيرًا من الحوادث مرّت بهِ فكانت على اشتداد هولها وتفاقم ضرها لاتشغل لهُ بالاً فانهُ لقي من الحادث الآتي بيانه قلقا وبلبالا

ولا خفاء ان الفتى غضيض الشباب مليح الشمائل كريم المحتد يطلب العز في غربته وقد صارت له المكانة بين بحارة مستخدمين فاعزّوه بما نال ولكنه لم يكن في اعينهم نبيلا وكان شجاعاً هاماً وجريئاً مقداماً ومع ذلك فقد تهيّب عند ما دنت ساعة الموعد وازف حين اللقا على انهُ كتم ما في البال من الجزع وصبر على احرّ من الجمر وناهيك بحالة من عرف شؤون الايام وانهُ ذاهب الى قصر الدوج مستترا بجنح الظلام ليدخله خلسة ودون ذلك ارصاد وعيون اذا رأوه لايتركون لحسن نواياه مجالا بل يسقونه كأس المنية دهاقاً وحبذا تلك الكاس لمن يشربها فتكون ارغد عيشاً وانعم بالا من حياةٍ تقضى لياليها كقضم الجلمد في سجنٍ يزج بهِ كئيباً حزيناً ملطخاً بالعار

غير ان خطران هذه الافكار في باله لم تعدم منه جراءة الجسور ونهضة الاسد الوثوب بل لم تبق له مجالا للتردد في الامر على هوله

ولا غرّوَ فالشبيبة قائمة بذاتها تصوّر لبنيها نصرة الهوى على الرشاد والعواطف على الصواب وقد تدفع بهم الى التهور في مناهضة الارضين وما عليها دون ان يمسّ الحبيب

وكان من عادة البنادقة ان تخلو اسواقهم من السابلة متى حانت الساعة الحادية عشرة اي قبيل منتصف الليل بساعةٍ واحدةٍ غير ان ذلك لم يكن شأن قصر الدوج ودور العظماء الذين كانوا يحيون معظم الليل في الانس والحبور

وكان صاحبنا روبرت مقيما في دارٍ مستاجرةٍ على قرب من دار الصنعة حيث تبنى السفن وتجهّز فلما صارت الساعة العاشرة خرج من

منزله يقصد المانة بعد ان تردّى بافخر الثياب واحتاط بما تيسر من السلاح لدرء المهاجمة وتبرقع بالشام سترًا لهُ عن العيون وسار متمهلًا محاذرا حتى دنا من باب الحديقة المشار اليها ونظر الى جهة الشاطيء فلم يجد بشرا فانزوى الى احدى الزوايا ولبث ينتظر الوقت المسمى فلا يجده الا طويلا

ثم جاءت الساعة فخفق فؤاد روبرت انتظارًا لمن يدعوهُ الى الدخول واذا بثلاثة من الرجال الملثمين متجهين في سيرهم صوبهُ واذا انعم النظر فيهم رآهم لابسين اللباس الفاخر فعرف انهم من العظماء ولذلك عاد الى موقفهِ في ظل الجدار

واشغلهم الحديث عن الالتفات اليهِ فمروا وما كادوا يخطون بضع اقدام حتى فتح الباب وبرزت منه امرأة او كادت توقع نظرها على الرجال الثلاثة وصاحت صيحة الرعب فالتفت الرجال نحوها ولكن حين اذ كان روبرت قد دخل من الباب ولفظ كلمة السر فأُغلق وراءه سريعاً

ولما صار في الداخل قالت المرأة له الحق بي سريعاً فني عارفة بمصير امورنا التعيسة اذ انا سنموت شنقاً او تغريقاً

ومع ان في هذا الوعيد شغلاً للبال فان روبرت لم يحفل بهِ لان خاطرهُ كان جائلاً في تصوراتهِ الخيالية حاسباً لملاذ لقيا الحبيب الف حسابٍ لا تبقي على الاحتساب ولا تذر ولهذا لم يسمع مقال الجارية ولم يحر جوابا بل سار وراءها حتى بلغ سلما في داخل برجٍ كبير نمت عليه الاعشاب والبقول لترامي عهد دخولهِ وكان على مثال سائر المواضع الفينيقية مظلما مستورًا

فسارت الجارية فيه اولاً سيرًا خفيفاً يكاد لا يسمع لهُ صوت ولحق روبرت بهِ على الاثر يقلد خفة خطواتها حتى انتهيا الى راس السلم المستنار بكوى من فوق وهنالك حجرة مظلمة وقف الاثنان فيها هنيهة ثم تركته الجارية لتعلن مولاتها بمجيء الحبيب وعادت فلحق بها الى حجرةٍ متلالئة بالانوار مزدانة بانواع الزخارف وهنالك من الطنافس والسجوف وسواها مايدهش الانظار

فوقف الفتى مبهوتا مما رأى واحتار بضع عشرة ثانية حتى وقعت عيناه على مثال الجمال قائمًا امامهُ فزاد خبالاً اذ الفى الغادة الحسناء في ابهى لباس وافخر حليً وهي جالسة على سرير كأنه عرش الملك في الابهة والجلال وهي من فوقهِ كالجوهرة تألقاً وسناءً تسطع في دجنة القصر على انها تلقت عشيقها بملء الهدو والسكينة حتى كان فؤادها لم يخفق للقاه وكادت علائم الحب تخفى لولم تبح بها وردة خديها حين اذ ذكت حمرتها

ومذ راته تتلاعب فيه داعيات الهوى واحست من هيئته اعظامه المقام قالت بنغمة ذات المكانة العليا في المقام والهوى - اهلاً وسهلاً ومرحباً بالباسل الذي ترأس البارجة بلروفون هلمّ واجلس واشرح لي حكاية اعمالك على اني سمعتها مفصلةً ولكن سماعها ممن شهد الواقعة افعل في النفس قالت ذلك حتى اذا سمعها ايا بشر ولم يعرف من هي قال لوقته نها من اسرة الدوج على انها بعد اذ اتمت كلامها قالت لخادمتها ان اتري في منع الداخلين عليها

اما روبرت فاذ سكن جأشهُ وثابت اليه سكينته لما سمع من

الغادة الحسناء دنا منها وجلس على مقربةٍ من جانبها وكأني بهِ قد سرَّ لاقتراحها عليهِ موضوع الحديث لانهُ كان قليل الخبرة في مغازلة الغيد فلما تكلم شرع يطنب بافعال رئيسهِ اربان ادريان غير معرّضٍ بذكر فعالهِ اتضاعاً واحتشاما واذا جرى في سوق الخبر بملء الفصاحة والبلاغة فالفت منهُ فتىً ذرب اللسان يطاوعه اللفظ الفصيح في اداء المعنى الصحيح فاصغت اليه بملء مسمعها ولم تبدِ حراكاً او اعتراضا الا في الاحايين وعلى فترةٍ من تتمة سياقه حتى اذا عاد اليه سكتت وسكتت الى نهاية حكايتهِ فتنفست الصعداء وقالت — وهل ان بنيَّة للص التي اسرتموها لطيفة المزاج جميلة الخلقة

— بل انها لحسناء الى درجة استاسرت بها قلب رئيسي وصديقي الكونت ادريان

فرنت اليه بطرفها الفتان وقالت — اعلها امتلكت كل القلوب

فاجابها فورا الا قلبي ثم منعه الحياء فنظر الى الارض حتى اذا مرّت الهنيهة استانف الحديث قائلا — ان قلبي محروس لايؤخذ لاني منذ اشهر جعلت في مقدسه تمثالا محبوباً لا يستطاع اخراجه منهُ

— لكن البحارة قوم ينقلبون مع كل ريح

- لعلهم في ذلك يصيبون اما انا فاست على طريقتهم لاني انكليزي وقومي يفتخرون بثباتهم ويحسبونهُ من الفضائل الاولى ومن ثمَّ ياسيدتي اراني مضطرا الى الافصاح بما في قلبي فهل تحسنين عليَّ فتسمحين لي ان ابوح بما في الضمير واراك حفظك الله لاتمنعينني من البيان فاني عاشق ذاتك اللطيفة ولكنني لست غبياً لاجهل الفرق بين المقامين

فاعلل نفسي بالمحال وامنيها باعظم الاماني ولولا لطفك وفضلك لما تنازلت الى هذه الحدّ ونظرت لي لعبد لذليل فما انت الا اعظم بنات المجد والزعامة وما انا الا جنديّ يتطوح في الاخطار لاصابة الاقدار والفرق مثل الصبح ظاهر ولطالما أمسكت النفس عن البيان ووطنتها على كتمان سرها المصون ليبقى حليفها حتى يفنيها لدهر ولكن امرك جاء بي الى بين يديك فبحت وساعود الى كتمان غرامي واذ قد قضيت واجب اطاعتك ارجو ان تسمحي لي بالذهاب

قال ذلك ونهض على قدميه واقفاً ثم انحنى لها مودّعاً

فقالت له بصوتٍ يتهدج التياعاً واشتياقاً

— اي روبرت حبيبي اجلس واعلم اني عذراء يمنعني الحياء عن التصريح ولكنك صرت مني بحيث تعديت حدود اللياقة التي سنها العرف لبنت حراء ولكنني لم اد تل بك خدري الا وانا عارفة بقدر فضائلك رسمو اداباتك ولحق الك لعرف بشؤون هذه الايام وتقلباتها ومخاطرها ومثلك لايعبأ بالحالة الحاضرة بل لابد وانك ترتفع شأنا حتى تعادلني مقاماً او تبزمني في مكانةٍ تدانيني فلا يداخلك اليأس

فلما سمع روبرت هذا الكلام انتعشت روحه فيه واخذ يدها بيده وشرع يقبلها قائلا اي بيانكا حبيبة القلب ومليكة الفؤاد ألي في حبك مطمع

— لك الامال كلها

ثم سمعت ضوضاء فصاحت بجاريتها قائلة — ياأونا من اتانا واذا بالجارية تقول — ان الخادم انبأ بتشريف حضرة مولانا الدوج الجليل

فاشارت بيانكا بيدها قائلةً — الى قاعة الصورِ على ان والدي الجليل لايلبث هنا طويلاً

— وهو مصحوب بالكونت فلاس وزيارتهما متأخرة عن ابانها

ومن الغريب ان بيانكا لم تتأثر كثيرًا بل فتحت بابا سريًا واخرجت روبرت منهُ ثم مالت للجارية فامرتها ان تجلس وأستكن هادئةً كأن لم يكن ثمة من محذور

وما عتم ان جاء الدوج وهو كما وصفناهُ رئيس حكومة فينيسيا رئاسة اسمية وعلى محيَّاه الوسيم علامة الانقباض وكان سنهُ زهاء الستين الا ان فيه نشاط الشباب وهيبة الشيوخ

— فلما دخل القاعة وهو عابس قليلاً نظر ذات اليمين وذات الشمال كانهُ يريد البحث عن غريبٍ فيها

فقالت بيانكا وهي تظهر السكينة والارتياح وتبطن الاضطراب والقلق

— ماذا عسى كان من الامر حتى فزت بشرف الحظوى بزورة مولاي في هذه الساعة المتأخرة من الليل

فاجابها الكونت فالاس — ان اشغالي مدى النهار اخرتني ايتها السيدة الحسناء عن اداء واجب احترامي لديك الى هذه الساعة من الليل وارى الوقت جميلاً فهل تتنازلين الى التمشي معنا في الحديقة

الا ان الغادة احست من كلامه بما لاتحمد عقباهُ وشعرت بسوء نيته فارتعدت فرائصها سيما اذ نظرت في الباب اربعة رجال من حرس ابيها الدوج ومع ذلك فانها ملكت اعنة نفسها وقالت ليس الوقت ملائمًا للتنزه

— وما قولك في الذهاب الى قاعة الصور

واذ كانت عادة البنادقة انهم يسيرون من حجرةٍ الى اخرى غير مرفوضين لم ترَ بيانكا وجهاً لمنع الكونت عن مراده على انها اعطته ذراعها وهي ترتعد جزعاً

واذ فكرت في الامر ولم تجد لحبيبها مناصا عزمت على انها اذا كشف امر روبرت اقرت لابيها بما يجلب اللوم على نفسها ويبرىء الفتى واعترفت بانها العاشقة الهائمة بحبه كأنها نست انه غريب الوطن ومن عامة الناس وكلا الامرين لا يلقيان من ابيها قبولاً

وسار خطيبها الرسميّ الكونت فالاس وهو باسم ابتسامة الهزء والمكر نحو القاعة وفتح الباب الكبير بيده ووقف جانبا ليفسح مجالاً لدخولها واذ اطلت ولم تجد ثمة احداً اشتدَّت اعصابها وتقدمت بقدمٍ ثابتة وجأش رابط واما روبرت فهاك ماجرى له

الفصل الثامن

(من القصر الى السجن)

دخل قاعة الصور وهو مضطرب البال لايقر له قرار خشية ان يدركهُ رجال الدوج فيقع الحيف على حبيبته وتتصل اليها الاهانة من حيث ترجو الكرامة وهو ليس ممن يعلم من سنن فينيسيا وعوائد اهلها لذلك العهد بحيث لايخفى عليه ان اكتشاف امره يؤدي به الى تجرع كأس المنية او ما هو اشد منها هولاً وافظع فعلاً كالحبس الطويل الذيل

وبين كان روبرت مفكرًا في هذه الامور رأى رجلاً قد انتصب لديه وهو طويل القامة كأنهُ الرمح الرديني وعلى وجهه اللثام والى جانبه

حسام صقيل فارتعدت فرائص الفتى من نظرات الرجل وقال في نفسهِ لقد طاب الموت ومن ثمَّ وضع يدهُ على نصل حسامه واراد ان يشهره فقال الرجل

— احذر فان من يشهر السيف في قصر الدوج يقتل

— ولكن يصعب عليَّ ان القى حتفي دما بارداً من غير ان ادافع عن نفسي .

— صه ايها الاحمق واذا كنت لا تقدر نفسك حق قدرها فعليك ان تفتكر بتلك وان لفظت كلمةً اخرى قتلت فتبعني

قال ذلك مشيرًا اليه بان يلحق به فاطاع الفتى مؤدى الاشارة بملء التؤدة والسكون كانه لم يكن ذلك الباسل الذي اراد منذ لحظةٍ ان يجرد السيف للقتال وانما هو الحب كالطلسم يفتح مغالق الامور .

واسرع الملثم بالخروج من قاعة الصور فلحق روبرت به واغلق الباب فبلغ رأس سلم نزلاه الى ممشى فسيح واتصلا منه الى دهليز مظلم انتهيا به الى بابٍ صغيرٍ ففتحه الملثم ومرّا به في الفضاء

فلما تنسم روبرت هواء الليل علم انه قد خرج من القصر وصار الى جانب الترعة الكبرى ثم ادرك انهُ على جسر التنهدات فوقف وقال

— ايها الرجل انا كنت اعلم اني لا اخطو من هنا خطوة اخرى اذ الموت عندي احب من ذلك الحبس الهائل قال ذلك واراد ان يجرد السيف فاجابه الرجل قائلاً

— اقصر ايها الاحمق الجسور واعلم انك في قبضة يدي ومن الجهالة

ان تجرد في وجهي حسامك واذا قبض عليك بامر الدوج ولا مناص لك من قبضتي الا بالطاعة فقط

وكانت لهجة المتكلم ذات سيادة اثرت في نفس روبرت الشجاع حتى استهوته ولم يرَ عن الطاعة محيلاً فسار وراء آسره الى ان بلغا باب السجن فقرعه الرجل وفتح كل ذلك وروبرت لم يزل كالمأخوذ حتى اذا انتبه لم يرَ الا الامتثال والتسليم للاقدار فدخل السجن ثم اشار السجان برأسهِ واغلق الباب وراءه اما الرجل فعاد وهو صامت ومشى السجان امام روبرت حتى انتهى بهِ الى قاعه فسيحة تتألق فيها الانوار وقد اضرمت في الموقد نارها وبسطت في وسطها مائدة عليها طعام جاهز وفيها غير ذلك مما يحتاج اليه ساكنها فلما صارا اليها التفت السجان الى اسيره وقال

— ايروبرت ستانلي تفضل واجلس

ثم رفع السجان الشام عن وجهه فبان واذا هو نوما بوناقي الملقَّب بشجاع فينيسيا

فلما وقعت عليه عين روبرت قال — هل جئتم بي الى هنا لكي تقتلوني

— اذا كنت لاترى نفسك اعظم من ان تاكل العشاء مع رجل شهير بالخبائث فاني لا البث ان احدثك بمقاصدي

فلم يجر روبرت جواباً ولكنه اطاع الامر وهو محتار لايدري من حاله شيئاً واذا بامرأة بيضاء للون تعلوها صفرة الوجل وتظهر عليها ملامح الحسن بالرغم عن سوء الحال قد دخلت وحيت الزائر

فقال الشجاع — هي امرأتي وقد جئنا لتناول الطعام معك فاما المرأة

فتبسمت لهذا الكلام و ذرت لنا بر لوازم العشاء فحدجه روبرت بنظره وحسب عمرها اثنتين وثلاثين سنة او حواليها فلما خرجت دنا الشجاع من روبرت ووضع يده على ذراعه وقال

— اي روبرت ستالي انظرت الى هذه المرأة

— بلى ولا انسى اصفرارها

- ارتكبت ذنباً طفيفاً في حد ذاته ولكنه ادى الى عوقب مضرّة فقضت هنا ثلاثة عشر عاما حتى الآن وستبقى الى الممات مالم يحدث امرٌ خارق للعادة

- على انها امرأتك

— بلى ولما ارتكبت لذنب وقد استحقت لاجله الاعدام كان لنا ثلاثة اشهر قدين الزواج ولولا ني تداخلت مع لدوج وحدمته بكل قوتي وبذلت اخلاصي وجعلت سيفي طوع اشارته حتى كنت اسفك الدماء لاجله لولا كل ذلك لما فزت بخلاصها ولا كنت لاجعلها تجتز هذه القبة ولكنني نلت ذلك واحرزت حرية لدخول الى هذه لمحبس مختاراً

ثم صمت لان امرأته دخلت الحجرة ووضعت زجاجة الخمر على المائدة فشرع الرجلان يأكلان وهي تنظر اليهما صامتة.

ثم ملأ الشجاع كأسين فاعطى احداهما الى روبرت واخذ ثانية وشرعا يشربان بملء السكينة وكان روبرت يتأمل في الشجاع طويلاً ولا يرى به مصدق لقول العام عنه ولما انتهى الطعام والشراب نهضت المرأة فاخذت بقية الآنية ونظفت المائدة ثم حيت لرجلين وسارت عنهما وهما بعد ذلك يتحدثان واذا بالباب يقرع فوثب الشجاع ودنا من

الانكليزي وقال

— اي روبرت ان هذا نصيبك وعساه موفقاً

قال ذلك ومضى مسرعا فانتصب روبرت على قدميه واتكأ على حسامه وقد عقد العزيمة ان يموت حرًّا ثميناً فظهرت هيئته بابهى مظاهر البسالة والثبات وصدق العزيمة مما يدهش الابصار الا ان دون ترداد هاتيك الخواطر افكار تختلج في النفوس وفرائص لولا الشجاعة ترتعد لهول الموقف

وما زال هذا حاله حتى رأى رجلين ملثمين قد اقتربا منه فلما صارا اليه رفع احدهما اللثام فظهر من تحته الدوج بهيبته ووقاره حتى اذا وقعت عليه عين روبرت ستانلي انحنى روبرت له احتراما وتوقيرا

واسرع الشجاع وقدم لحضرة الدوج كرسياً فجلس عليه وخرج ولكن الملثم الاخر وقف وراء مولاه

فلما خلت الحجرة صاح الدوج بصوت رزين قائلاً — ايها الضابط روبرت ستانلي انك جندي باسل تطلب نصيبك بحسامك المأجور لخدمة جمهورية فينيسيا وقد كنت هذه الليلة لوحدك في حجرة ابنتي

فاحمرَّ وجه روبرت خجلاً ولم يبد من الجواب الا الانحناء اما المولى فاتمّ الحديث قائلاً

— ولا مجال للانكار لانا عارفون بوجودك هنالك فان اصررت فانما اداة التعذيب توجب عليك الاقرار

— ان تلك الاداة تستطيع ان تسلبني رشدي اذ يغمى عليَّ بل ربما اتصلت قوّتها الى تمزيق بدني ولكنها لا تقوى على فتح شفتيّ بما يمس

كرامة سيدةٍ من كرائم النساء واعلاهن فضيلةً وشرفاً

— كان الاولى بك ان تفكر في هذا قبل ان دنست بوطيء قدميك حرمة قصري وعلى كل فان عنادك ايها الشاب لا يحملك على السكوت عن اجابتي على سؤالٍ واحد الا وهو ماعو قصاص من يجسر على دخول حرم مولاه جهرةً وفي جنح الليل مظهرًا فعلنه للسوى ليلطخ بالعار والاثم اسم بسيدةٍ طاهرة الذيل

— ليس الا تجريعه كأس الموت وذلك من اخف انواع القصاص

— بما انك قدرت المقام حق قدره واحسنت الجواب فاني اسالك سؤالاً اخر الا وهو هل تحب ابنتي

فلم يفه روبرت ولا بكلمة واحدة بل احنى رأسه وتراخت يداه فتدلتا ورأى الدوج منه ذلك فقال بلهجة غريبة

-اراك تأبى ان تجيبني فانظر حولك ترى المدعي عليك فرفع روبرت عينيه المطرقتين الى الارض ورأى وراء الدوج وجها بديع المحاسن قد صبغته حمرة الخجل وعينين نجلاوين يجول الدمع فيهما مترقرقاً لمشابهة ماء الحسن في ملامحها ولكن الدمع لم يكن الا سرورًا تدل عليه ابتسامة الثغر الفتان بما فيه من التدريج بين اللؤلؤ المنظوم وعقيق الشفتين

فيالله من مشهدٍ تحار فيه الالباب كيف لا وقد تغير فيه الحال من الشوم الى ذرى السعادة البادية اثارها في العيون ولئن لم تبح بها الشفاه على ان هذا الانتقال كان فجائياً ولذلك وقف صاحبنا كالمبهوت واذا بالدوج قد انتصب واقفاً وصاح بملء صوته — اي روبرت سئلني ماذا تقول

ونظرت بيانكا الى حبيبها نظرة كانت ترجمان القلب ولسان العاطفة

وكفى بها ذريعة لاطلاق لسانه من الاعتقال اذ قال

- صرت يامولاي بحيث لا اصر على النكران لاني اذا ادعت عليَّ ابنتك البديعة بمثل هذه الدعوى ورمتني بالحمق والجنون فلا اجد سبيلا لغير الاعتراف

فلما سمع الدوج التفت الى شجاع فينيسيا وكان واقفا وراء منصة كبيرة من الخشب وقال - اي بوناتي ان لي معك حديثاً — ثم تقدم نحوه اما روبرت فدنا من بيانكا وضمها الى صدره قائلاً

— وما مغزي هذه المظاهر

- انَّ ابي رجل كريم الاخلاق جليل الصفات شريف المبداء وقد حدث انهُ اتهمني بزورتك فانبائه بكلما كان واني احبك فعفى عنا غير ان المستقبل مجهول وربما يكون عسيرًا ولا بد من اقتضاء بعض الشروط قبل زواجنا

- فليأمر ابوك بماشاء وليقترح عليَّ ما اراد

عند ذلك دنا الدوج من محله ومال الى الحبيبين وقال اجلسا واسمعا ما اقول فامتثل الحبيبان الامر وجلسا وبقي الدوج ينظر اليهما متمعنا فيهما نظرهُ وفي اخر الامر قال

اني لم انس بعد حوادث شبيبة ولذلك تريانني راغباً في ترك عواطفكما سائرة في مجراها ولكن ذلك لسير لا يلزم من الشائبة حتى تمهد له السبل وينظر في وقايتهِ من العوارض والموانع وانكما لتعلمان ان في فينيسيا ثلاثة رجال بلغت سلطتهم ماوراء ساطتي ومن نكد الايام ان احد هولاء الثلاثة يطلب مصاهرتي

- اما هو الكونت فالاس

- بلى فاذكر ذلك يار وبرت ولا تنسَ انك ليعسر عليك الزواج بابنتي قبل ان تسحق قوة الرجل فاصبح في الحقيقة دوجاً على هذه البلاد

- مولاي ...

- تمهل عليّ لاتم حديثي فاني عزمت على ان اكسر شوكة هؤلاء الظلمة لاني اراني لا اقوى على التمتع بحقوق منصبي لا اذا خفضت شأن مجلس العشرة وندوة الثلاثة وتلك خطوة لا تنال الا بمعاضدة الامة ولهذا قد سلمتك ايها الفتى شأني و وضعت امري بين يديك فاذا ابحت سري لا تلبث ان ترى رأسي يتدحرج من فوق السلم الاكبر

- لست لاصمت يامولاي فقط بل ابقى خادمك المطيع الى الموت على ان سموك قد منحتني حياةً جديدة فجعلتها وقفاً على ارادتك لانها منك واليك ومن ثم فاني اسألك مولاي بجراءة القربى والحظوى لديه اذا كان قد حسب بعواقب الامور مقدار ما لاعدائه اللئام من السطوة والغنى والارصاد وخشية الناس لقدرتهم

- لا يروعني ذلك وبين انصاري رجالٌ كادريان فاركاس وروبرت ستانلي ومن وراءهما من افراد الامة ولم يكتفِ الدوج بهذا الكلام بل تحبب لروبرت بضربات خفيفات على كتفه ثم نهض وحيّاه تحية الوداع قائلاً ولا بد من الاجتماع ان شاء الله تعالى واني لسوف ابلغك مني كلاما في مدى بضعة الايام واذا ساء بك حال فعليك بالشجاع انه يقضي لك اللبانة ولكن احذر من ان تذكره بالخير امام الناس

قال ذلك وسار فلحقت به بيانكا امار وبرت فظلَّ كانه في حلم حتى اذاغابا عن المظر ودنا بوناتي منه قائلاً

— فلست اذاً تحت حكم القتل

— بل بالعكس ايها الصديق انك لتجد في الآن اسعد الناس حالاً.

قال ذلك ومد يدَّه فصافح الشجاع بحرارة الوداد

— ذلك لانك ربحت حب غانية حسناء . ه ئت بذلك وانك لن تجد مني اعتراضاً يقل من ثقتك لان السيدة بيانكا من كرائم النساء على انك حتى الآن لم تمتلك عواطفها وازيدك بيانا ان في سبيلك اليها مهاوي ربما كمنت منيتك في احداها لان مشروع ابيها الدوج عظيم جداً وهو بين الخيبة والظفر

— لكنني اترجى لهُ النجاح لان ظلم الاعيان فاحش لايطاق

— الا انا لانذكر ذلك في هذا السجن اما الآن فهلاَّ تجد من نفسك رغبةً في التماس الراحة على اني في اشد الحاجة اليها سيما لان غداً يتطلب منا عملاً فهكني للنام وانطرح على الارض بعد اذ اومأ الى كرسي هنالك اراد ان يتخذه روبرت فراشا وما عتم ان استسلم للرقاد فنام وغطَّ ولكن روبرت لم ينم لانه تصور السعادة بادية لعينيه وقد صارت قريبة المنال باحراز العروس الشريفة التي يهواها غير ان دون اجتناء الشهد صعاب وعقاب اخف بلائها خصام وقتال وحروب داميات ومخاوف تشيب لهولها الولدان كيف لا والخصم الذي يتعين عليه منازلته هو حكومة جائرة قائمة بيد بضعة رجال مقتدرين بالمال والجاه يعززون مطالبهم بحد الحسام وينالون اربهم بالاحتيال والخديعة فينزلون

بالعدو وبالاً ولا يرحمون

وعلم روبرت فوق هذه ان تلك الفيئة الطاغية لا تحتاج في الاقتصاص الى ذنب تثبته او جناية تحققها بل انها لتفاقم ظلمها وجورها تقتص ممن تخيل لها شبهة وقوعه في الجناية ومع علمه بذلك لم يتردد عن طاعة الدوج ولا تذبذب خاطره عن مرضاته لانه سلم اليه الجسم خاضعاً خاشعا كما سلم القلب والروح لابنته بيانكا البديعة

وكانت هذه الافكار وامثالها وما يتولد منها من سلاسل التأملات تستغرق الوقت حتى يكاد المرء لا يشعر بمرور الزمن اما النعاس فانه هاجم اجفان الفتى منذ تقاص عنه احتدام الافكار فنام الى الصباح حتى اذا استيقظ رأى امرأة الشجاع تعد طعام الصباح فلما تناولا معه كفايتهما خرجا يريدان زيارة الكونت ادريان فاركاس

الفصل التاسع

(زيارة الكونت)

وكان ذلك الكونت قد دعي بالربان ادريان اثناء غزوته البحرية حتى اذ عاد منها ظافرًا مثل لدى الدوج فاداه واجب احترامه وعرض عليه الاسيرة البديعة التي فاز بها ومن ثم بعثها الى قصره الفاخر المحسوب من اعظم قصور البلد لان صاحبه الباسل كان من الاغنياء المشهورين اذ اتصلت اليه ثروة عائلة قديمة جمعت الى تليد غناها طريفا صادرًا من ثروةٍ طائلة كانت لاحد التجار الذين اسعدهم الحظ بقربى اولئك الاشراف وهذا سرّ غنى ادريان اما سبب كيانه محسودًا من زملائه

النبلاء فقائم بوفرة النقود بين يديه وانه كان جواداً كريماً

والحسد والعياذ بالله داء قتال تحرّمه الاديان وتكره الاداب ولذلك فالحسود يتبرأ من الدين والكمالات جملة اذ لايرتضي من الدهر الا زوال النعم عن ذويها وبئس هذه الاماني السافلة

وكان عظماء فينيسيا وكبارها ورجال حكومتها يرصدون بعضهم بعضاً ويلقون الشبهات على ايهم مازهُ الدهر سيما ادا مال الى نصرة الدوج او كان من حزب العامة غير ان الكونت ادريان لم يكن ليعبأ بحسد العظماء وثرثرتهم لارتفاعه عنهم في البسالة والحمية سيما لصيرورته بعد ايابه ظافراً اميرا على اسطول دولته حيث كان يستوي لديه تشامخ الكبراء وسكينة العامة فلا يهتم بشيء منها لاتجاه افكاره الى صوب اخر الا وهو ان اقدامه على الحرب وفوزه بالخصم الباسل لم يكن ليقف حائلاً بينهُ وبين وقوعه اسيرًا بيد اسيرته التي غنمها من الحرب فكانت نصيبه منها وعوضاً عن ان تكون له ملك يدٍ صارت منهُ مالكة القلب واللب حتى انه لما وطيء ارض العاصمة وفاز بالمثول والحظوى لدى الدوج ودعاه الى العشاء في الليلة التاليه خرج من لدنه مسرعاً فركب زورقا وسار يمخر به العباب الى قصره حيث كان قد بعث سليما بالامر الى الخدم ان يعدوا لزليخة معدات الراحة والهناء وان يقوموا على خدمتها بما يستطيعون اليه وصولاً من الدقة والاعتناء فلما دخل القصر رأى الغادة جالسةً على خوان بسطت فوقه انية الطعام وقد اكلت الحسناء منه مريا وشربت هنيا والخدم بين يديها وقوف وبينهم قهرمانة الدار وفوق ذلك فقد أعدت لمسرة الفتاة جوقة المغنين والمطربين وكلما ترتاح اليه النفس

وتبتهج العين مما يستطيع المال ان يتخذه سلما للمسرات · وكانت تلك المعدات جميعها قد اخذ بها تسلية للحسناء في غياب الامير

وكان للامير نسيبة بعيدة القربى يقال لها السيدة لسبا على انها فقيرة الحال وفي العمر نصف فاستدعاها ادريان وجعلها تربيةً للفتاة تحدثها وتؤانسها حتى سرّت وابتهجت وشكرت واثنت ولكنها مع كل اسباب انسها كانت تجد من نفسها ارتياحاً الى شيءٍ لم يكن موجوداً

لا غرو ان الحسناء تملكها الهوى فصارت لا تجد راحة الا في قرب الحبيب ولا تشعر بلذة الا اذا كان صدورها منه وعائدها اليه كيف لا وهو الذي اخذها من الاسر ومن الحياة المرة واذاقها نعيم قربهِ وحلاوة حبه فبعاده ولو الى وقت قصير لا يعادله شيءٌ من المسرات وناهيك ان مظاهر الغنى والشرف والمجد العظيم سلبتها الراحة فقطبت حاجبيها لانها كانت تظن بادريان فتى من عامة الناس لاشان له غير ما حصل بحسامه فشرعت تدب الى فكرها تاملات تلذها وافكار ترتاح اليها حتى اذا رأت غير ما ظنت اظلمت امالها وكادت تخيب لانها عرفته رباناً عظيماً واميرًا كبيرًا وصديقاً حمياً الدوج فهو اذًا من عظماء البلاد وكبار اعلها فنسبته اليها ستكون غير ما حدثتها به امانيها

وبين هي غارقة في بحار هذه التاملات دخل ادريان القاعة فاشار بيده الى الوقوف اشارة لطيفة فخرجوا من الحضرة سراعاً وجاء الى جانب حبيبته وجالسها وآنسها قائلاً

- كيف قضت زليختي وقتها

فتنهدت وقالت - على احسن ما يكون

فنظر اليها نظرًا دقيقاً وقال — اي عزيزتي لما دخلت فينيسيا في هذا الصباح كنت اسيرة الدولة فاضطررت ان اسلمك للدوج ليفعل بك ما يريد

— بالله .... ثم نهضت

— تمهلي عليّ واعلمي ان وليّ النعم جواد كريم وما كدت ابين له رغبتي حتى جعلك طاق تصرفي فهل ترضين يا زليخة ان تصادقي على مؤدى امر سموه وتكوني لي قلباً وقالباً

فاحنت رأسها وعلاها حمرة الخجل فأتم كلامه قائلاً

— لا يدخلك الوهم فاني انا الكونت فاركاس اسألك ان تكوني لي زوجة — فرفعت رأسها ومدت له يدها وبسمت ثم قالت

— وانت ايخلق بك ان تتزوج بنية يونانيه غريبة الديار فقيرة الحال مجهولة المكانة خاملة الذكر

فكان جواب هذا السؤال من باب مطارحة العشاق ونفثات المحبين وذلك ما يعسر القول به وتصعب علينا روايته غيران في كل قلب للغرام كتاباً فليقرأ العاشقون سطوره يتجلى لهم معنى الجواب ثم ان ادريان باح لحبيبته بما في خاطره من الظن باقتراب ايام الاضطراب والقلق وانه راغب في الزواج قبل انقضاء اسبوعين لا بد من مرورهما تأهباً للحفلة التي لا بدّ منها

وهما في هذا الكلام واذا بالسيدة اليا قد دخلت عليهما قائلة ان الساعة قد صارت الثالثة بعد نصف الليل . فاجفلت زليخة من سرعة مرور الوقت وهرولت الى الحجرة الفاخرة التي اعدت لها لتستسلم لسلطان

الرقاد فكان لها في الحجرة خادمتان ايضاً فلما دخلت غرفتها صرفتهما وذلك امرٌ جار اد ان البنات في مثل تلك الليلة يرغبن في الوحدة والعزلة ليخلو لهن الجو بافكارهن فيعاودن ذكر الحديث المطرب تلذذًا بالتكرار بل قد يقفن على المرآة وينظرن الي هيئاتهن مزدهيات بذيالك الجمع الذي تألبت اجزاؤه البديعة فتنصت اسدًا وبين هي كذلك والسرور طافح على فؤادها رأت على المائدة تحت المرآة خنجرًا ملفوفاً بقطعة من اورق فاجفلت وكادت تصيح ثم فتحت الورقة فرأتها مكتوبة هكذا

« حذار حذار من محبة ادريان فاركاس فان لمرت اقل جزء تصيبينه في قرانه بل هو الموت والهلاك لكليكما احفظي هذا سرّ وان شئت ان تعلمي اكثر فتعالي الى الشرفة عند آخر الممشى . فلما قرأت رليحة هذه البطاقة احذتها ارعبة ونولاها الهلع والقت بنفسها على المقعد متكرة في ما يجب ان تعمل لان في كلا الامرين ذهابها الى الشرف وايقاظ انيام وانبائهم بما كان امرًا كبيرًا على انها بعد التفكر في الامر حينا من الدهر عزمت ان تكلم الذي توعدها فاسرعت الى رداء كبير وجدته في الحجرة فالتفت به واخذت الخنجر وخرجت فلما بلغت لممشى سمعت وقع اقدام الحارس المخصوص في القصر اذ كان يتمشى في قاعة فاطمان خاطرها وتشجعت فخرجت الى الدهليز تريد الشرفة المقصودة فخرج حينئذ من حجرتها شخص آخر على وجهه قناع وهو مستتر برداء كبير ولحق بها بخطوات خفيفة تكاد لا تسمع حتى بلغت الشرفة المطلة على الترعة الكبرى على علو عشر اقدام فقط فنظرت زليخة في الماء فرأت زورقاً واقفاً تحت

الشرفة وفيه رجل طويل القامة منتصبا على انه ماثم ايضاً فلما ابصر الغادة قال

- اترى ان من أرى هو السيدة زليخة

— بلى انا هي فمن انت يا من تطالب مكالمتي في هذه الساعة من الليل قالت ذلك وهي تحدجه بنظرها لعلها تعرفه

— اي زليخة ما اسرع ما نسيت صديقك المحسن اليك والمغرم بك فان ثلاثة اشهر لا تكفي لذلك

- الم تكن ميتاً ايها الرجل الدموي المقترف الذنوب والمجترم الاثام فما ذا تعمل هنا وكيف تجسر ان تدعي بغرامي فقد كان لي ذات مرة ان اتقرب اليك كاب ولكنني لما علمت ان لا نسب بيننا ادركت معنى محبتك وفقهت لخالك فاصبحت اكرهك شديدا واخافك اكثر

— لقد اعمتك خيانة هذا الوقح الدنيء

— بل هو كريم المحتد من عظماء البندقية واشرافها وقد تنازل فشرفني بعرضه عليّ ان اكون له زوجة مع اني مجهولة النسب فقبض الرجل على الشرفة بكلتا يديه وصاح — اياك والتهور يا زليخة بل اصغي اليّ واعلمي ان نسبك اعلى من نسبه وان اميرًا كبيرًا برتبة دوك يضع ثروته ومنصبه تحت قدميك

— لو عرض علي الزواج باحد الامبراطورية لفضلت ادريان عليه

— ويلكِ يا لعينة فانه لا ينال منك قلامة ظفرك

ثم رفع بديه كأنه يريد ان يقبض عليها فارتدت الى الوراء خطوة

واذا بها بين ذراعي رجل حملها وحاول القاءها من فوق [illegible] الى الزورق فارتاعت الفتاة واسقط بيدها اذ اوشكت ان تقع بين يدي اللصوص لولا ان حدث ما يذكر

وذلك ان زورقاً آخر جاء يقتص الاثر وفيه رجلان فناداه احدهما قائلاً ايها اللص الجريء عرفتك وجئت اليك

فما سمع اللص هذا الكلام حتى دفع بزورقه الى الماء وشرع يجذف بملء قوته نجاةً بنفسه من التهلكة فسار وما ابتعد حتى دنا الزورق الاخر وخرج الرجلان اللذان فيه الى احدى السلالم ومنها سارا في ما يسميه البنادقة بالازقة والشوارع وان هو الا قطع ضيقة من الارض كثير التعاريج فقال احدهما

– اي روبرت ليس في الامكان طراده في هذه الليلة على ان اعمالنا خابت ولكن فليحذر لان ليس في كل مرة تسلم الجرة سيما وان في اثره من لا ينام عن ملاحظته

— ولكن لم لا نخبر الشرطة فنقتص اثاره وتكفينا شره

— لاني اريد ان اقتنصه بيدي ولا اسمح لسواي بفخر احباط اعماله لان بين يديه سعادتي وحريتي وخلاصي فاذهب رعاك الله الى دارك لانه لم يبق لنا من عمل في هذه الليلة

اما زليخه فانها لما سمعت الصوت تركها القابض عليها وهرب فسقطت الى الارض كأنها مغمى عليها من هول تذكارها ولكن ما عتم ان عاودها حولها فنهضت مذعورةً واسرعت الى حجرتها فدخلتها واغلقت الباب والقت نفسها على فراشها وظلت فرائصها ترتعد حتى غلبها النعاس عند

الصباح فنامت الى الضحى حتى اذا استفاقت جلست في فراشها وفي عزمها ان تدعو بالجواري لخدمتها فلاحت منها التفاتة فرأت في مخدتها وريقة نيطت بها ففضتها وقرأتها هكذا : اذا قلت لادريان كلمة واحدة مما جرى كان كلامك قضاء مبرماً عليه فان كنت تحبين وجوده فصوني سري كاتبه

كوزمو اللص .

فحملقت الفتاة بالرسالة وشرعت تقرأها كالمأخوذة من هول ما رأت مفكرةً في هاتيك الدسائس والوسائل العجيبة التي بها اصبحت حجرتها الخاصة غير امينة من طروق العدو اللدود او دخول غير واحد من رجاله الانذال على انها أُسقط بيدها واحتارت حتى بلغ منها الخوف حده فاصطكت اسنانها جزعاً من الفكر ولبثت لاتدري كيف تعمل لوقايتها من الدخول عليها في جنح الظلام ومن ارهابها الى هذا الحد فرات ان تبوح بسرها لادريان وتلتجيء اليه ليقيها من الخطر ولكنها رأت من نفسها رجوعاً عن ذلك لاسبابٍ لم تدرِ ماهي فكتمت امرها وعولت ان تدّعي الاستيحاش بالانفراد في الحجرة وان تطلب السيدة السبا لتنام معها فيها

وما زالت هذه افكارها حتى لبست ثيابها فصرفت الجواري عنها واقبلت تفتش في الحجرة لعلها ترى فيها منفذًا سريًّا فلم تترك موضعاً الا تجسسته ولكنها لم تجد ما احتسبت منه وبعد دقائق معدودة دعاها ادريان اليهِ ابتغاء مؤاكلتها في الصباح فذهبت ورأت المائدة الفاخرة وعلى رئاستها السيدة السبا واما سليم فكان يخدم الكونت لانهُ رفيقه ولا يفارقه

في البر والبحر فنظرت زليخة اليهِ ولكن نظراتها لم تكن تصوّب الا الى ادريان ولو حدجت ببصرها و باصرتها سليماً وكشفت سرهُ لداخلها الريب منه ولكنها كانت يومئذٍ في ابان سعادتها ولا ترى لها عن مسرتها بحبيبها بديلاً ولذلك تناست المخاوف واستنامت للحوادث

الفصل العاشر

(التهور)

وكان اللص قد خلا بنفسه في قاعة قصر اجدادهِ العظام وهي خربة ينعق فيها البوم فتصور حاله من الدنيا وكيف اصبح منبوذاً من الوطن والامة مطروداً شقياً محسوباً بين السفلة الطغام تتوعده الحكام بالهلاك والبوار وتنصب بلدتهُ وآلهُ لهُ الحبائل لاقتناصه والتنكيل بهِ فعظم عليه الامر وعض على شفتيه حتى كاد يدميها سيما لان كثيرين من الحذّاق عرفوا بسلامته من الهلكة ونجاتهِ من الغرق ومجيئه الى الحاضرة مزيداً في نكاية ذويها

وخيم الغسق ومرّت الساعة الاولى فنهض اللص من مجلسه محتدماً في نفسه غيظاً على نصيبه وشرع يتمشى في القاعة ذهابا وايابا اما جماعته فقد تفرقوا في انحاء المدينة يدخلون حاناتها ومجتمع اناسها ليأخذوا عنهم نسائم الاخبار ويستطلعوا طلعهم في شأن زعيمهم الشقي لعل خبر وجوده في العاصمة صار مستفاضاً غير انهم لم يفوزوا بالضالة التي ينشدون لان عامة البنادقة لم يعرفوا عن نجاته شيئاً وانما حسبوه ادرج في عداد الموتى

و بين كان اللص يتمشى وهو غارق في بحار افكاره واذا بالجرس يقرع ففتح الشقي باب قاعته وسار في دهليز طويل الى باب جانبي ففتحه وادخل رجلاً طويل القامة ملثما ومشى الرجلان من غير كلام حتى بلغا الحجرة فالقى الرجل نفسه على كرسيٍ هناك ثم رفع اللثام فبان من تحته رئيس مجالس الثلاثة اريد بهِ فالاس اعظم كبراء فينيسيا وحكامها وما لبث ان حيا اللص قائلا

— عم مساء ايها الصديق فاني وحبك اراني اشعر برطوبة قصرك واحسب ان في دنانك معتقة نسجت على زجاجتها العناكب فزادتها رقة وكمالا (١)

- فاستحضر اللص زجاجة من المعتقات وصبَّ منها في كأسين فادنى احداهما من فالاس وسحب من الجرار كيساً مملوءًا بالدنانير و وضعه على مقربةٍ من الكأس وقال —

— اي سيدي الكونت فالاس احسبني الآن في اشد الحاجة الى معونتك لان وجودي هنا صار معروفاً

— واني ذلك ففيه غرابة بل انه كان في فم الاسد هذا الصباح عشرون تهمة وليس منها ولا واحدة متجهة اليك

(١) — كان الاقدمون من الرومان يعتقدون ان للخمرة معبودًا يسمونه باخوس فجرى على السنتهم القسم به والكناية اليه في الاحاديث عن الخمر وتابعهم في هذا المنحى كتبة العصر السابق الذين قصدوا بكتابهم فائدة الدارسين بالاشارة الى اداب اللاتين والروم — وكان الحلف بهذا الرعيم المعبود كان جاريًا حتى في العهد المسيحي القريب الينا على السنة البنادقة فجعله مؤلف هذه الرواية مقسماً به ولكننا بدلناه بما هو اوقع في نفوس قرائنا كما ترى

— انما يعلم بي رجلٌ واحدٌ ليس الا فالحكمة تقضي عليَّ بمبارحة فينيسيا اياماً فسأرحل بالتؤدة والسكينة واعود عما قليل والذي اريده منك ان تستحصل لي على العفو والغاء الامر المؤذن بالقبض عليَّ فاملأُ خزائنك مالاً

— ولكنك لا تعلم ان الدوج صعب المراس ومع هذا فلا تخشهُ اذ لا بد من ارضائه بما نريد من الغاء الامر الصادر بنفيك ونبذك وسنفوز بذلك في مدة خمسة عشر يوماً

وكان الصديقان يتكلمان ويشربان من الخمرة المعتقة حتى اذا فرغت الزجاجة نهض الكونت فالاس واخذ صرة الدنانير فاخفاها في جيبه واستأذن الشقيّ المنبوذ وهو يعده خيراً

ولما خرج اقفل اللص الباب وراءه وصعد الى اعلى البناية واعطى مديرها اشارة لمن في البرج المهدوم وصبر للجواب حتى اذ اخذه عاد الى مربضه وما عتم ان قرع الباب ودخل زائر جديد فخلع عنه اللثام فبان من تحته سليم الفتى المصاحب لادريان وهو مطرق كرى لما وقر في نفسه من الخيانة والدناءة فصاح الشقيّ عند رؤيته وهو باسم قليلا

— ومن ثم جئت أيها الغلام لنتعزى سواءً على ضياع عملنا امس ولكننا نؤمل بالفوز في هذه الليلة

— اذا كنت واثقاً من رجالك كوثوقي من نفسي فلا خوف علينا وعليك بتمام الاهبة لقضاء الارب عند نصف الليل وكن حذراً يقظاً من الطوارئ

— سأدبر ذلك بنفسي واما انت فاظنك يكفيك واحد من رجالي

– اذا كان قوي العضل فهو كافٍ وعليه ان يوافيني ولا يضيع فرصة

– سيكون يقظاً وانما اطلب اليك ان تبوح بطلب جائزتك

– انا لا اطلب شيئاً لاني لا احتاج الى شيء اما المال فانه يحرق اصابعي وما عملي الا لاني اكره الفتاة ولست لأراه عريساً لها بل افضل ان اطعنها وهي بين ذراعيه من ان تتم لها هذه الامنية. فنظر اللص الى الفتى وصعرخده احتقاراً وقال

– لا فائدة لي ايها الفتى بالحصول على جثة الفتاة واعلم ان ذراعي طويلة فاجازي باشد الصرامة كل اذى يصيبها

– واني لا امس التي خلبك حسنها

ثم تكلما بعد ذلك قليلاً وافترقا فمضى سليم ليرتكب الخيانة المعيبة اذ ارتضى ان يضع لزليخة بنجا في الخمر التي كان من عادتها ان تشرب منها قبل النوم كاسا معطرة مسكرة وان يسير برجل آخر الى غرفتها فيلفانها ويحملانها الى قاربٍ معدٍ لذلك

وحانت الساعة الاولى بعد نصف الليل فسمع بحارة الزورق العلامة المعطاة لهم وكان عدتهم اربعة رجال وحواليهم اثنا عشر رجلاً في حراستهم لئلا يطرا ما يعيق الخطفة عن فعلتهم واذا بسليم قد برز من باب خفي صغير قائم فوق الترعة ونادى باحد القرصان وكان رجلاً قصير القامة ممتلىء الجسم قوي العضل فلحق به في دهاليزٍ مظلمٍ ضيق مرت عليه السنون الطوال وهو مقفل فلما انتهيا منه بلغا سلماً ضيقاً ينتهي الى احدى الحجر ففتحها سليم وتجاوزها الى غيرها ومن هذه اتصل الى حجرة الغادة الحسناء

وكان جبين سليم يندي خجلاً من الخيانة و وجنتاه بين احمرار الحياء واصفرار الوجل من افتضاح امره وظهور سره ولكن هذه الامارات الدالة على ثورة العواطف فيه لم تكن ليراها رفيقه لان حجرة الغادة لم تكن تستنير الا بضوء ضئيل من مصباح مظلل كان على مائدة موضوعة في احدى الزوايا

وكان الهدو سائداً الا في صدر من لهشت لنومها المغصوب فاقترب سليم من الفراش و رفع الدثار ولف ذلك الجسم الابيض الناعم برداء كبير خشن الملمس يستره من الفرق الى اخمص القدم ومن فوقه قبعة تستر الراس ويمنع سماع الصوت اذا افاقت الفتاة واستغاثت ولما انتهى سليم من عمله تأخر الى اللص فدنا منها وحملها بين ذراعيه كأنها الطفل الصغير وسارع في الذهاب فلحق سليم به وهو يكاد لا يرفع عينيه من ثقل ذنبه وتوبيخ ضميره حتى اذا خرج من الحجرة اقفل الباب السري ومضى بطريق آخر الى حجرته بعد ان اوصد باب الترعة اما القرصان فاحذوا غنيمتهم و وضعوها في قارب وشرعوا يجدفون قاصدين البرج القديم الخرب مستهدين اليه بما راوا في راسه من النور

وما انتصفت الطريق حتى جاءهم قارب آخر فيه بضعة عشر من الرجال فصاح زعيمهم بصوته الاجش قائلاً

— افزتم بالنجاح

— نعم

— اذاً اسرعوا لان في البلدة هرجاً و لقوم يرصدوننا وقد ظنوا بنا السوء ومن الواجب ان يكون مركب في قلب البحر قبل الفجر نجاة لانفسنا من الهلكة

فلم يكن من جوابٍ لان القوم كانوا عارفين بصيرهم اذا ساء بختهم وقبض عليهم وعرفوا من القرصان المشهورين بزعامة كوزمو

وكان هذا الشقي قد امن على سلامة غنيمة فتركها في زورق خطفتها واسرع بزورقه نحو البرج القديم فبلغه قبل ذيالك الزورق بنحو ربع ساعة

وللحال وثب الى البر وصعد الى المحرس القائم فيه وامر الخفيران يشير الى المركب بالاقلاع من مرساهُ والدنو منهم ثم اخذ منظارًا كبيرًا وشرع ينظر في الافق ثم قال

– هو ذا الحسناء قد انت على ان جاكو بو يعرف الواجب عليه اذ يبعد نهارًا ويعود ليلاً فيشبه الابرة في دخولها وخروجها بل ماذا ارى مركبا من سفن الحكومة يراقبنا فعلينا بالاحتراس ايها الاعزاء لانه ليس من السداد ان يقبض على عنق الاسد وهو في عرينه قال ذلك وانحدر مسرعاً الى الاسفل ليعجل بذهاب القوارب فلما بلغها رأى بحارًا ضخم الجثة يحمل الفتاة وهي غائبة عن رشدها واذ كان عارفاً بانها غير لابسةٍ الا ثوباً صفيقاً امر رجاله بالاسراع الى قواربهم ثم تعاطى ايقاظها بان رفع القبعة عن راسها ليأتيها الهواء

ويالله انهُ رآها غير تلك التي اراد فشرع بسباب وشتائم لا يحصيها العد ولا تقع في حساب وصرخ بالبحارة فاجتمعوا اليه فانزل بهم ما لا يطاق سيما خاطف المرأة فانهُ اسمعهُ ما يكره قائلاً — ويك ايها الاعمى الاعمه اما لك عيون تبصر فتجيء بهذه بديلةً عن زليخة النادرة المثال التي تعرفونها جميعكم

قال ذلك وأمسكه بعنقه فجرّه الى حيث كانت الم[illegible]جها الرجل بعينيه وهي لم تزل نائمة من اثر البنج لأنها اذ كانت تحب الخمرة اكثر من زليخة شربت الكأس حتى الثمالة فدبت اليها عقارب التخدير واذ كان السرير واسعاً والنور ضئيلاً والحالة خطرة لم يهتدِ الخطفة الى قصدهم فادالوه بها

وبين. كان القرصان في هذا المرج وهم لايدرون ما يعملون واذا بالخفير يناديهم ان هبوا فقد اطبقت عليكم رجال الاعداء اذ ارى مركبين يسرعان نحونا ثم مال الى زعيم الجماعة وقال

— أتامرنا بالقتال

— لا بل انجوا بانفسكم لان المحاربة عن هذه الشنيعة لا خير فيها فتسارع القرصان الى زوارقهم واندفعوا بها الى البحر نجاةً بانفسهم ففازوا لان البحارة كانوا تحت امرة ستانلي الانكليزي ولما صاروا الى الموقف انحدروا الى البر عند البرج القديم وفيهم الشجاع بوناتي فرأوا باب البرج مفتوحاً فدخلوا واذا امامهم السيدة السبا صريعةً فعرفها روبرت والشجاع وصعد كلاهما الى قمة البرج فابصرا بالقوارب قد نجت بسيرها في احد الخلجان فتبادر لذهن الرجلين ان وجود السيدة السبا مدعاة الى اختطاف زليخة ايضاً فلا بد ان تكون قد دفعت بين ايدي اللئام ولما عاودا النظر في المرأة عرفا انها شربت الشراب الممزوج فاسرعا الى القوارب وركباها ببضعة من الرجال يريدون بذلك اقتفاء اثر القرصان ومناجزتهم ولكن خابت امالهم وحبطت مساعيهم لان اولئك القرصان كانوا يعرفون الماء الرقراق حق معرفته فساروا فيه وتجاوزوه الى البحر قبل

ان بلغ البحارة الى منتصفه فعاد هؤلاء الى بلدتهم حاملين المرأة الى مقر زوجة الشجاع حتى الصباح حين اذ افاقت فاندهشت واحتارت وجيء لها بالثياب فلبست وعادت الى قصر فركاس بصحبة ستانلي فلما رأى الكونت ذلك وسمع ما كان وان اللص لم يزل حياً يرزق وقد دخل فينيسيا اسقط في يده فقصت عليه زليخة ما علمت من الامر وكيف اوشكت الوقوع في احبولة القناص فازدادت حيرة القوم لتمكن القرصان من دخول القصر واذ لم يداخل احداً منهم اقل ريب بصداقة سليم ظلوا في حيرتهم تائهين لا يجدون لهذه المشكل حلا ولم يكن ادريان عارفاً باسرار داره وما فيها من المنافذ الخفية لان اباه توفي فجأة حين اذ كان الابن صغيراً لا يستطيع هاتيك الخفايا ومع ذلك فانه لما وقعت الحادثة عقد العزم على البحث فنال ثمرة مراده نجاحاً واذ رأى الباب السري لصوب البحر أقفله وسد الممر بالحجر والكلس ثم ذهب بنفسه الى الدوج وخلا به فاحكى له عن نجاة كوزمو وعن مجيئه الى العاصمة وتجواله في البحر فاصغى الدوج لما احكى ادريان حتى اتى على اخر كلامه فاوصاه ان يكتم الامر سراً مصوناً لانه لابد ان يكون للص اصدقاء في المدينة يطلعونه على اسرارنا وغاية البحث الذي نتوخاه ان نعرف اولئك الاصدقاء غير انه لابد لنا من تجريد بعثة جديدة لاقتناص الشقي على ان تكون سرية وغايتها ارتياد مغارة القرصان واستئصال شأفتهم وبعد اذ اقر ولي الامر على ذلك عهد بقيادة البعثة الجديدة لادريان على غير رضى منه فسار الرجل من حضرة مولاه وهو عاقد عزمه على الاسراع بعقد زواجه قبل الرحيل

اما الدوج فلما خلا بنفسه رنّ الجرس فاذا بالشجاع قد دخل عليه وكأنه بقوة السحر جاء في حين الحاجة اليهِ مع ان بقاءه في الباب لم يكن من عادته واذ كان الدوج واثقاً بمهارة الرجل وانه لابد ان يكون قد سمع الحديث وعرف باطن الامر قال

— وما هذا الذي سمعته

—ليس الا الحقيقة بعينها وقد حدث لي اني تتبعت اثاره وكدت افوز بالقبض عليه لولا تأخري المسبب عن تقصير المخبر

— ولكن اتراهُ يرجع

— لا ارتاب في ذلك لان الفراش لايبرح يحوم حول النار وقد عرفته عاشقاً تلك البنية ولا يستطيع الصبر عنها فثق يامولاي انهُ يعود الى فينيسيا عما قليل بهيئة غير الاولى

ومن هم الاصدقاء الذين يعتمدهم

— اولئك الثلاثة

— ويك يتوما بوناتي ان الحكم على امراتك بالسجن المؤبد باقٍ عليها لاقسام رهيبة حلفتها ولا استطيع الفكاك عنها ولكن اذا اقمت الدليل على ان الثلاثة او واحداً منهم يصاحبون عدو الدولة والوطن فاني وشرفي لاسألن قداسة الحبر الاعظم ان يحلني من تبعة القسم فتعود اليك امراتك مطلقاً سراحها من السجن

فانحنى الشجاع تكرمةً للدوج وتعظيما وقال — ان سموكم لفي اوج الرأفة والحلم على ان باكيتا امرأتي تستحق القصاص الى آخر درجاته وقد نالت منه حتى الآن نصيباً وافراً اما انا فسابذل جهدي ولكنني اسأل

عظمتكم ان تعدني بوعدك الشريف انك لا تاخذك الحدة اذا اعرضت على مسمعك سرًّا غريباً

— ان واجباتي تقضي عليّ بالسكينة والهدو وانت عارف مالا يعرفه سواك من اني محتمل ضيمًا وكاظم غيظي فتكلم تجدني كالدمى لا تحرك

— ان اللص كوزمو هو ذات الدوك مالاسبينا

فارتاع الدوج وارتد الى الوراء على كرسيه بعد اذ صرخ يا الهي ثم قال للشجاع اعطني الكأس فاعطاه كاسا فضية فيها بقية شرابٍ فشرع الدوج يتأنى في شربها ولما ثابت اليه سكينته قال

— اتراك واثقاً في ما تقول

— بلى ولا بدّ ان ياتي ثانيةً فتثأر منهُ لنفسك واثأر انا لذاتي ولهذا فلا اسأل لامرأتي من السجن تسريحا حتى يقتل اللئيم

— احسنت يابوناتي ثم مدّ الدوج يده الى جرار قريب منه ففتحه واظهر ما فيه من الدنانير وقال

— تعال وخذ منه ما تريد لان المال قاضي الحاجات سيما في هذه المدينة فتجسس واقتص الاثر وافعل ما تشاء بقصد اثبات التهمة على اولئك المفتشين الثلاثة الذين يقصدون اركاس اعمالي حتى صيروني اسمًا بلا جسمٍ فلا يعاد النشاط لمنصبي العظيم حتى تظهر دناءة اولئك الرجال وخياناتهم . اما الشجاع فمد يده واخذ كفاءته ليسد به اطماع الذين يستخدمهم في قضاء ماربه على انه بذاته لايحتاج الى شيء



الفصل الحادي عشر

(ليلة الطرب)

اسفر الصباح فاجتمع في منزل الكونت ادريان جميع معدات المسرة والحبور والفخر والمجد والعلياء والشرف والثروة واليسار احتفاء بزفافه الميمون على عروسه البديعة وكان المدعوون كثارًا من نخبة العظماء وزبدة الكبراء من غير ان تميزهم آراؤهم الساسية او احزابهم واغراضهم لان ليالي الطرب تجمع الشتيتين . وكثر تحدّث الناس بابهة الليلة المعدّة لاسيما وان سمو الدوج يشرف الحضرة فيها فيزيدها عظمةً وجلالاً ومثل ذلك دُعي اليها اعضاء مجلس الثلاثة والعشرة وسائر اهل الحل والعقد في تلك الحكومة الجائرة المستبدة المنتحلة اسم الجمهورية تمويهاً وتلفيقاً واغرب ما في سننها الشاذة ان من اصولها ألاّ يباح جهارًا باسماء المأمورين فيها كأن التصريح بذلك مضر او الاخفاء ميسور اما الدخيل بينهم والمتصل بهم فكان يعرفهم ولكن لا يستطيع ان يذكر اسماءهم في المجالس الخاصة

ما ادريان فكان قد اعدّ وليمة فاخرةً يعقبها مرقص وغناء على ان يكون المدعوون ملثمين حتى الساعة الثانية عشرة فيرفعون اللثام ويحين اوان العقد

ولم يجتمع العروسان في ذلك اليوم الا في الصباح مدةً لا تجاوز بعض الدقائق ثم افترقا هذا لشغله وتلك لملبسها الفاخر الذي اعده لها زوجها من كل نفيس وغال

ولما حان الظهر ابتدأ الضيوف بالمجيء وشغل الكونت باستقبالهم كل

بحسب مرتبته اما الدوج فسار المضيف بهِ توًّا الى صدر المائدة وهكذا اعطى لكل ضيفٍ مكانهُ وكان بين المدعوين لها الكونت فالاس بابهةٍ عظيمةٍ فلما دخل الدار ابدى لصاحبها الاعتذار بعبارات رقيقة لادخاله اليها رجلاً غريباً كان في صحبته واسمه الكونت رافائيل زيترني من كبراء نابولي واعاظم رجالها الاغنياء فاقتبله ادريان باللطف والايناس متمنياً له ان يرى فينيسيا بما لايخرج عن مسرته — وابتدأت الوليمة ولم يكن المدعوون اليها الا من الرجال على ان الذين دعوا للرقص والطرب كانوا عدداً كبيرًا يزيد عن المدعوين للطعام اما السيدة زليخة فكانت تقتبل النساء وتسعفها في ذلك السيدة السبا ولهذا لم يكن بين الجنسين اختلاط في الوليمة ولكن بعد انتهاء المادبة ينضم الرجال الى النساء ويبتدىء الرقص وكل الحاضرين ملثمون حتى تدق الساعة الثانية عشرة

اما الغريب فجلس على المابدة الى جانب فالاس على قربٍ غير بعيدٍ عن الدوج ولم يكن يحدث الا صاحبه خافتا وكان لباسه فاخرًا ومن جمال هيئته كان في ملامحه ما يقبض النفس منه لان عينيه كانتا تتقدان كنار حامية ولا تستقران على مرئيٍّ وناهيك بما يبدو عليهِ من اثار العجب والخيلاء والاكتفاء بنفسه عن مؤانسة الرفيق الا ان الذين رأوه في الليلة السابقة في قاعة القصر الاعظم وهو يلعب القمار شهدوا منه انساً ولطفاً ومما دار به حديث الرجلين قول فالاس

— ان مضيفنا الحدث ظاهر البسالة

— هو كذلك الا انه يتعين عليه الانتباه لشأنه لان قومه قد انقرضوا او كادوا

فلما سمع المخاطب ذلك التفت حوله لئلا يسترق السمع وقال

— سكّن روعك ياصديقي لئلا تصوّب نحوك الاذان وتحدج بالعيون فيكشف امرك وحتى انا اعجز عن خلاصك

— الا ان الثلاثة يفعلون ما يريدون

— وانك العدو اللدود لذات الدوج وليس بين الناس من يأبى تسليمك للقضاء اذا عرفت حقيقة حالك اما انا فقد خاطرت بشأني ومقامي وجئت بك الى هنا فحسبي ذلك وكفى فاذا وقع منك شيء اكون اول من يشكوك

فلما سمع الرجل هذا الكلام علت جبهته قطوب كأنها الغيوم الكثيفة وكاد ينطق بجواب يدل على كدره وامتعاصه ولكنه عاد الى نفسه فكظم الغيظ لاسيما وانه رأى عن بعد رجلا لابساً لباس التجارة الفاخر وعيناه مصوبتان اليه تحدقان به طويلاً فنظر الى رفيقه واشار اليه بعينيه اشارة كادت تكون خفية وسأله عن الرجل من يكون

— هذا هو سنتلي احد الانكليز قدم الينا في طلب المصلحة وعين نائب للكونت فاركاس وهو يطنب في الثناء عليه فاحذر منه لان هذا الفتى من جزائر الملائكة وهو جسور بل متهور يقتحم الاخطار ولا يهاب

فلم يجبه الرجل ولكنه كاد يفرغ صبره انتظارًا للنهوض عن المائدة حتى نهض الدوج وسار الى قاعة داخلة فدخل الخدم بالعشرات لرفع المائدة وتنظيف قاعتها

ثم تلثم الحضور وضربت الطبول وعزفت الموسيقي اعلاناً بقدوم السيدات

فقال الكونت رافائيل زيتربي الى احد العمد واتكأ عليه وشرع يترقب الناس وكان قد لاحظ ملابس الفتى الانكليزي فاراد مداعبته لانه خشي من عواقب سوء المظنه غير ان روبرت لم يكن في تلك الاونة مفكرًا في شان الغريب بل كان هادساً باشياء اخرى ذلك ان الغادة بيانكا كانت قد وعدته بوضع علامة مخصوصة يعرفها منها اثناء تلثمها وعما قليل دخلت فجاءَ اليها ووضع يدها بيده وشرعا يتخطران في القاعة

وكذلك اخذ الكونت ادريان احدى الغادات فظنها الغريب الغادة التي يرصدها وشرع يفكر في اختراع اسلوب يتمكن به من الاجتماع بها وهو آمن من مغبة اكتشاف امره ومع انه كانَ مضيقا لثامه فانه رأى من السداد ان يغير زيه فاتجه صوب حجرة صغيرة كانت معدةً للسيدات وهنالك غير شكله حتى صار في هيئة الشيوخ وما كاد يتم عمله حتى سمع وقع الخطوات على مقربة منه واختبأً في احدى الزوايا حتى يخلو له جوها واذا بالكونت ادريان وحبيبته قد دخلاها حتى اذ استقر بهما المقام قال الكونت - اي اسيرة سيفي وسناني وآسرة قلبي وجناني اتراكِ راضيةً عما سيكون من سعادتنا غير آسفةٍ على ما مرَّ بك من العيش الخشن في البر

- كيف لا ارضى بهذه السعادة والرغد واكره من صميم القلب ذلك العيش التعيس بما فيه من اثر الغلظة والخشونة نعم لا انكر عليك ان صاحب تلك المنازل كان لطيفا بي محسنا اليَّ الا ان وراء اعماله غرضا لا ارضى به ولكنني لاينغصني لهذه الاونة الا اني لا اعرف والدي

— ان ذلك ليس بالامر العظيم وايما بشر نظر اليك علم انك من بنات الكرام على اني اشفق على اهلك الذين فقدوك لانهم يجهلون مقدار ما سلبهم الدهر

— انا لا يسوءني من الامر الا ما كان من جهتك لانك لابد ان يسوءك افتقار امرأتك الى اسم تتحلى به كسائر الناس

— ليس الامر كما تزعمين بل حسبي ان تكوني زوجتي وان تصبحي في الغد كونتة فاركاس بل ربما صرتِ في عهدٍ غير بعيد دوقة مالاسبينا (يذكر القاريء ان كوزمو كان دوق مالاسبينا قبل انغماسهِ في الشقاء) وذلك لقب اعظم بيوتات المملكة

وما اتمَّ ادريان كلامه حتى قاطعه صوت رجل دخل الحجرة اليهما فتنبه الكونت واذا بهِ روبرت ستانلي يقول —

— اصفح لي عن جسارة الدخول عليكما وقطع حديثكما فان سمو الدوج يريد مكالمتك بشأن مهم الا وهو ان بين الموجودين اشاعة تناقلتها الالسن مؤداها وجود اللص كوزمو بين المدعوين

فنهض الكونت من مجلسه وطلب الى عروسه البقاء هنالك ريثما يعود ثم خرج في اثر نائبه الباسل

اما زليخه فتمددت على المقعد الذي كانت جالسةً عليهِ مع عريسها مفكرةً في شأنها ورغد عيشها غير مبالية بقول روبرت ولكنها متنعمة بالسعادة المنتظرة ساعةً فساعة

اما الغريب الملثم فخرج من مخبأه وراء السجوف وقصد الباب واعطى اشارةً لكثيرين من الموجودين بين الحضور فجاؤوا ووقفوا حول

الباب يحمونه من الطارق وعاد نحو زليخة وهي غرقى في بحار تأملاتها السعيدة فرآها كذلك غير شاعرة بوجوده فقال لها بصوتٍ رزين

— اي زليخة

فنهضت مذعورةً مرتاعةً اذ كفتها نظرة واحدة لتعرف مكلمها بالرغم عن تقنعه باللثام فارادت الهرب ولكنها ما استطاعت اليه سبيلاً اذ قال لها لا فائدة لك من الخروج اذ ان على الباب كثيرين من الانصار فاصغي لكلامي

— ويك يا رجل الدماء والشر كيف تجسر على هذه الاهانة بدخولك قصر زوجي

— حتى الآن ليس ولا يكون ابدًا واني لافضل ان اغمد خنجري في قلبك من ان اراك زوجةً لغيري وناهيك انك لو علمت ما اعلم لابيتِ ان تكوني له امرأة

— ولِمَ ذلك ياطائر الشوم

— لان الدم الذي يجري في عروقك انما هو دم الاماء والعبدان ومن سنة فينيسيا ان من يتزوج بامةٍ يقتل قتلاً

فارتاعت زليخة لهذا الخبر ولكنها تظاهرت بغير ذلك وقالت

— انت تقول هذا لترعبني

— انا لا اقصد ذلك كذبًا وافتراءً بل حسبك الناس وكلهم يعرفون هذه السنّة

— ولكنني لست بامةٍ بل انا بنية خطفتني من بين اهلي

— بل شريتك من تاجر العبدان في الاستانة واخذت منه بطاقةً

نؤذن بالبيع وقبض الثمن وها كها في جيبي فاذا بلغت منك القحة والجسارة ان تتزوجي بادريان فليس عليَّ الاَّ ان اعلن مجلس التفتيش بامرك واطلعهُ على السر مستعيناً على اثباته بالصك الذي معي

وكانت زليخة جاهلةً عوائد البنادقة وسنن حكومتهم فخارت قواها واتكأت على المقعد ثم غطت وجهها بيدها فقال اللص

— فان شئت ان تستحيي هذا الفتى الجسور وان تمهدي له سبيل الارتقاء الي المناصب العليا التي يحلم بها فاتركيه ولا يخال لك انهُ يسلم من الاذى لمصادقته الدوج فان ذيالك الشيخ لايقدر ان يعمل شيئاً مخالفاً لشرائع البلاد فاذا هربتِ معي فانه ينجو والا ان تزوجتِ بهِ فقد قضي عليه

وفي تلك الهنيهة اشار احد الذين على الباب اشارةً خفية اعقبها بقوله هوذا الكونت ادريان اتٍ فعجل

عند ذلك التفت الى الفتاة وقال

- اي زليخة اذا احكيت عن حضوري فيما بينكم قتلنا ادريان غداً بحكم الحكومة

ثم خرج من حضرتها فقبض على ذراعه الكونت فالاس وقال اسرع بالخروج لان وجودك بيننا قد صار معروفا وسنخلع البرقع عن وجوهنا وقد اغلقت الابواب الا عن خدمة مجلس الثلاثة فانه يستحيل على احدٍ ان يقف دونهم وخذ كلمة السر انها « اسد القديس مرقص »

فسار النبيل النابولي (تلك هي الصفة التي انتحلها رفيق فلاس تلك الليلة كما مرّ) مخترقاً الصفوف حتى بلغ السلم الكبرى وهنالك

جمهرة الخدم بالملابس الفاخرة فتجاوزهم غير معارض حتى الدهليز حيث راى بعضاً من عسكر الدولة مدججاً بالسلاح فعارضوه في خروجه اذ ان احدهم وقف في الباب باسطاً ذراعية وكان ماثما ثم اشار الى الضابط القائم على الخفارة فمانع في خروج الرجل قائلاً — يتعذر عليك الخروج لانه وردت لنا اوامر مشددة بحظر ذلك حتى تنتهي الحفلة

- غير ان تلك الاوامر لا تعلق لها بي وها كم كلمة السر (اسد القديس مرقص)

- تفضل واخرج لان هذه الكلمة اعطيت اشارةً للخروج فخرج الغريب واذا بالماثم يقول - ويك ايها اللعين كيف علم السر اني مؤكد انه الرجل الذي نقصد القبض عليه فكأنهُ يتعاطى السحر

قال ذلك وسار تابعاً خطوات الشقيّ وهو على ثقة من معرفته لان بوناني لا يخادع

الفصل الثاني عشر

(العرس)

ولما دخل ادريان الحجرة راى زليخة تبكي فشرع يسألها ويرجو منها بل يتضرع اليها ان تعالنه بالسبب وهي لا تزداد الا حرصاً على كتمان سرها بل ظهر له منها اعراض الكدر وانقباض النفس ووشك الاغماء وعلم رغبتها في تسويف الزواج ومسرتها بذلك وذاكرها فوجد منها اعتقاداً راسخاً بانه يتنزل للزواج بها خافضاً من شأن مقامه العالي لانها غير معروفة النسب

- كانك لا يازليخة سمعت ان ذلك اللص الجريء حضر المادبة فارتعت لهول الخبر

— اهو هنا - اه ياادريان ان الشر ليأتينا من هذا الزواج لانه في حالة اليأس والقنوط وهل ترى في شريعتكم ان النبيل يقتل اذا تزوّج بامةٍ

فاجفل ادريان كمن داس افعى وقال — بل ان هذا هو الواقع ولكن اي شيء حملك على ان تسأليني هذا السؤال

— أخشى ان اكون امةً اذ قد قيل عني شيء من ذلك

- لقد كنت امةً عند القرصان ليس الا فلا تراعي بل سكني روعك وسري وافرحي لان سمو الدوج ينتظر مثواك بين يديه

فقالت وعيناها مملوءتان بالدمع ومطرقتان الى الارض ـ لكنك لا تلمني اذا وقع المحذور بل اعلم اني اختار الموت في سبيل نجاتك من الاذى

فضمها ادريان الى صدره ثم سار بها الى حجرة اخرى حيث كانت تنتظرها الاتراب والوصائف والجواري وناهيك ببعض الكرائم وفي مقدمتهن بيانكا ابنة الدوج فانها ملت اليها واحسنت ملتقاها وجاملتها مظهرةً لها ميلاً عظيماً وحباً ملطفاً لقلق الفتاة حتى اذا سكن جاشها بما تتالى من الحديث العذب مالت بها بيانكا الى جانبٍ وسرّت له قائلة انها اذ لم يكن لها نسب معروف فقد رغب سمو الدوج ابوها المعظم ان تعمد الفتاة سراً وان يكون اسمها ماري زليخة بوريني وهو اسم امرأته المتوفاة فلما سمعت الفتاة هذا النبأ داخلها السرور لانها حسبت

ان بها تحل معضلة النسب التي توعدها اللص بها اذ تصير ابنة الدوج بالعماد (فليونته) وتلقب باسم امراته الفاضلة التي توفت عن بنتين منه احداها خطفها اللص والقاها في اليم

و بعد مضي بعض الدقائق كانت الفتاة عرضةً للتهيج الطبيعي فسير بها الى الكنيسة حيث كان ينتظرها الدوج وسائر المدعوين وكان الكهنة قائمين على المذبح فركعت امامهُ وابتدأت الحفلة ومما يذكر ان الفتاة كانت عارفةً بواجبات الدين لان اولئك اللصوص مع انغماسهم بحمأة الشقاء والخبائث لم يضنوا عليها بتعليم الاصول المذهبية والمبادىء الدينية ولذلك لم يكن يعوزها شيء لدن وقوفها امام الكهنة بل شرعت تجيب على الاسئلة الملقاة اليها بما يجب حتى انتهى القسوس من فرضهم فاعلنوا قبولها في حضن الكنيسة المسيحية عضواً كريماً ثم دنا الكونت فاركاس منها وابتدأت صلوة الاكليل فانتهت بعد نصف ساعة صارت الفتاة في ختامها كونتة فاركاس فحياها الجمهور تحيةً عامة وسار القوم في خدمتها الى كرسيٍ مخصوص وعاد الرقص الى حاله اما ماري زليخة فلم تشترك بهِ ولكن ادريان رقص مع غير واحدة من كرائم السيدات

وكان روبرت ستانلي قد اضطر ان يسلم ابنة الدوج (بيانكا) الى فالاس لترقص معه او مع سواه من الامراء الذين يطمعون بالزواج بها خيفةَ ان يثير الظنون قبل اوانها وظلّ مدى ذلك واقفاً الى جانب العروس يحدثها ويسامرها ولكنهُ وجدها كالدمية لاحراك فيها لاستغراقها في الافكار احتساباً من عدوها الهائل اذ لم تبال بوعيده بل نبذت امره كالنواة وكانت عيناها ترافقان ادريان كيفما مال على انها اخذت

تحاول اقناع نفسها بانتفاء المخاوف والمحاذير

وفي خلال ذلك رأى روبرت سنالي ان بيانكا تخلصت من الرقاصين فاسرع اليها يسألها اتفضل بمخاصرته

اما زليخة فكانت في دستٍ فاخر وحولها حلقة من الاتراب اللواتي لما راينها تتجنب الكلام شرعن يتكلمن فيما بينهن وكان الدست المحكى عنه بين سجوفٍ ثمينة من الحرير الفاخر فاتكأت الفتاة عليها واذا بصوتٍ يهمس في اذنيها قائلاً —

— احذري فان الوقت لم يمض على تخليص زوجك ذلك بان تذهبي بعد ساعة الى حجرة ملابسك المجاورة غرفة منامك وهنالك تجدين من يدلك على الخلاص من نصيبك · فلما سمعت هذا الكلام جلست صامتة كالمأخوذة لاتدري ماذا تعمل اذ خطر لها ان تفصح عن الامر وتكشف ضمة الخبيث ثم قالت في نفسها لا بل اترك لامر لحكم القدر

ثم نهضت من مجلسها وشرعت تطوف بين الحجر كأنها لا تقصد امرًا مخصوصا ولكنها في الحقيقة كانت تطلب زوجها حتى بغت موقف روبرت ستنلي فهمست في اذنه اسؤل عن ادريب فاجابها — "ان دعي لامر ذلك ن اللص الجريء الذي نقذناك من بين يديه موجود لهذه الاونة في فينيسيا وقد لحق بهِ حتى موضعه فصدر لامر الى فاركاس واليّ بالقبض عليه

— كيف يتركني زوجي ليلة قراننا ولا يقول لي كلمة في ذلك، لعجبا

— سيعود اليك قريباً ثم ذهب من امامها لينضم الى رئيسه واذ لم تكن قادرةً على احتمال ماوقع لها سارت الى حجرة ملابسها لتخلو بها وعلى امل لقيا الذي حذرها

الفصل الثالث عشر

(اللص)

الا ان الشخص الذي كلم الغادة من وراء السجف مضى لسبيله وان هو الا امرأة نحيلة القوام مسترسلة الشعر لابسة لبساً فاخراً وملثمة لثاماً عريضا تستحيل به معرفتها

ومن ثمّ فانها بعد اذ كلمت الكونتة ابتعدت عنها وشرعت تسير بملء التؤدة والسكينة كأن لم يكن ثمة شيء يوجب قلقها حتى دخلت في حلقة القوم واخذت تصغي لكلامهم وتستمر على سيرها الى ان بلغت موقفاً بجانب الدوج وهو يحدّث الكونت فالاس وغيره من عظماء القوم الذين كان الناس يعرفون انهم حكامهم الظالمون ولئن كانت معرفتهم غير ثابتة جهرةً

فوقفت المرأة وراء احد السجوف وسمعت القوم يتحدثون بما لاطائل تحته حتى مرّ الكونت فاركاس مرافقاً احدى الكرائم الى مقعدها فاشار الدوج اليه بالدنو منه ومال اليه بلطفه وانسه شأنه من معاملة الذين يرضى عنهم وقال —

يا لها من عادة سيئة تضطرك ان تراعيها فتترك امرأتك الحسناء

[illegible] وتشغلها بمجالستك فاحمرّ الكونت

خجلاً من عبارة الدوج واجاب

— اشكرك يامولاي على هذه العواطف

وما اتى على آخر كلامهِ حتى دنا من الدوج مأمور من رجاله فحيًّا بالاحترام والاكرام وقال — ان بوناتي يسترحم من سموكم التفضل بالسماح لهُ في المثول لديكم اذ انهُ اقتص اثر اللص الى عرينه

— تعالَ به الى هنا

فما عتم ان وقف الشجاع متضعاً امام وليّ امره وقال

— مولاي وتم لعبدكم ما خطر لي اذ ان اللص الجريء قد تجاسر على دخول هذا القصر متنكرًا ومع انه ظهر للجميع شيخاً جليلاً قد وخط الشيب لمته فقد رأيته خارجاً من هنا

فصاح به فالاس قائلاً — ولم لم تقبض عليه ايها الرجل

— لانه كان عارفا بكلمة السر فلم يجسر الحراس على منعه فقال الدوج — ويك ما تقول امدّت الخيانة يدها الينا خذ ايها الضابط حرسي بالحال ولقي عليه القبض سواء كان عارفاً بكلمة السر او لا وأتِ بهِ الى قصرنا

فانحنى الضابط واراد الخروج واذا بلكونت فركاس يقول

— ان ملاحقة هذا الرجل والقبض عليه من اخص واجباتي ولكم اتمنى ان احبسه في محبس ثم اراه عابرا جسر التنهدات فاذ قضيت ذلك اعود اما روبرت ستالي فقيلوا له ان يلحق بي

قال ذلك واسرع لحشد بضعة من رجاله وكان لمرأة التي وقفت وراء السيف قد اسرعت ذاهبة منه قبل ان تقلد بكذت القادة عن

انها دخلت احدى غرف المنام وخلعت اللباس الذي كانت تلبسه ولم يمض على ذلك عشر دقائق حتى شوهد سليم خارجاً من القصر يسرع الخطى على انه كان عارفاً بشوارع المدينة وطرقها بحيث يسهل عليه اجتناب الخفراء ولذلك كان مسيره قبيل رحلة العسكر بنحو عشر دقائق فكان سبقه سبباً لمقتل كثيرين ولبلاء عظيم

لانه شرع يركض في الازقه المتعرجة حتى وصل الى ممشى ضيق واقع بين ترعتين فرأى باباً صغيرًا ففتحهُ بمفتاح كان معه واسرع يصعد في الدرج الضيق حتى انتهى الى الطابق الاعلى فقرع باباً و راءه نورًا يراه الذين على البحر وما عتم ان فتح اللص الجريء الباب بيده وقال

— ما وراءك ياغلام اتراها ارتضت بالاجتماع بنا

— لا وانما الامر خطب جلل والوقت اضيق من سم الخياط فان بوناتي الشجاع قد لحق اثرك الى هذا المكان وهوذا الكونت ادريان وروبرت ستانلي ومعهما جمهرة من العسكر اتون لاقتناصك ولولم آتك ركضاً لوصلوا اليك قبلي فلم ينبس اللص ببنت شفةٍ بل تقلد حسامه وشكل غدارته وامر سليما باللحاق به ثم نظر من النافذة فرأى مركبين كبيرين مقبلين عليه وقد اوشكا الوصول الى باب القصر المنهدم فللحال انحدر من صوب السلم المؤدي الى الباب الصغير الذي دخله سليم الخائن وفتح الباب وخرج منه الى الخلاء وكان على قرب منهُ زورق مربوط بحبل الى دعامةٍ في الجدار فللحال امر سليما بالدخول الى الزورق ثم حله وشرع يجذف بملء قوته ومنتهى خبرته وما زال سائرًا سيرًا حثيثاً ولكن من غير ظاهر اضطراب او قلق حتى بلغ من ترعة موضعاً ضيقاً

لا يستطيع زورقان ان يمرا به معاً ثم انتهى منه الى ما وراء بنايات منخفضة هي مساكن عامة الشعب فدنا من احدها وبدا يضرب بيده على زجاج نوافذها ضرباً شديداً واذا بجواب يدل على خشونة صائته يقول — لبيك ياصاحب السعادة ثم فتح باب فدخل المار بان منهُ الى حجرةٍ داخلية في احد الحانات التي كان يتردد عليها البحارة والصيادون وسائر الرعاع الا انه لم يكن ساعتئذٍ هنالك احدٌ ولذا كان الموضع اميناً الى الصباح ومن ضرورة القصوى اهتمام اللص ببارحة البلدة فطلب من الخمار صاحب الحانة ان يعدّ له لباساً من ملابس الصيادين ليدخل قاربا ويذهب بهِ الى مركبه الراسي على بعد عن الميناء فعارضه سليم قائلاً — وهل يتمتع الكونت ادريان بعروسه ويتنعم بملاذ قربها وانيس مسامرتها وانت تبقى شريداً طريداً

— اليك عن هذا الكلام يابني واعلم ان فينيسيا لا تخلو زواياها من جاسوس ينقل الاخبار الى ظلامها واني لا شك بفالاس اذ ربما يبطن لي غير الصداقة التي يظهرها وناهيك بان ذلك النذل الملقب بالشجاع يترصدني وانا لا اعرفه من قبل ولا ادري اني جنيت له ذنبا وهكذا لست لاستطيع البقاء في البلدة يوماً واحداً بعد اذ اصبح وجودي بها مشتهراً

— دعهم في غيهم يعمهون وان في فاركاس مواضع لم تطئها ارجل البشر منذ سنين فنقيم فيها امنين شهوراً واعواماً فتردد اللص عند سماع كلامه وقال واني لما دخلت مصر

— اني ادخل واخرج منهُ وليس بين القوم من يشك بي او

يحسبني من مساعديك لان الكونت ادريان يحبني

- فليكن ماشئت ولكن عليك الا تدع الخمار يعرف شيئاً من امرنا وانت تسعى بادخالي حين اذ يكون الخدم قد تعبوا من العمل وضجروا والتمسوا الراحة واحسن لباسٍ يستتر به انما هو لباس تجارة الزوارق

وللحال اخذ الرجلان باتمام ما عزما عليه ولم تمض عليهما الساعة حتى كان زورقهما يسير الهوينا في الترعة الكبرى حتى دنا من سائر القوارب واختلط بها متربصا انتهاء اونة الافراح

وكان الدوج قد انتظر عودة الكونت ادريان فلما اب اليه وحيداً من غير اسيره سار من الحفلة ولحق به بقية الضيوف ولهذا كان يسهل على سليم الدخول الى القصر من غير ان يشعر به احدٌ فقاد رفيقه الى احدى السلالم الداخلية وسار به فيها الى سطوح القصر ومنها الى احدى العلالي حيث تركه يتنعم بقضاء ليلته

ولم يتيسر لسليم الصعود اليه الا عند مساء اليوم الثاني حين اذ اعطاه سلة مملوءة من الطعام والشراب وطلب اليه ان يلبث ساكناً لان القوم يفتشون عنهُ تفتيشاً دقيقاً

- وهل قضي عليَّ ان البث هنا كالاسد في القفص بينما ارى مناظري يتنعم بفوزهِ ان ذلك لما تأباه شيمتي فلا بد لي من السعي في اهلاكه ولو وردت في سبيل الامر مورد العطب كيف لا واني لاكرهه كرهاً شديدا

فنظر الفتى الى اللص نظرة غريبة وقال

- اذا مسستَ شعرة من رأسه اسلمك للحكومه لتعذبك عذاباً

مبرحا وتميتك شر الميتت

فبرقت اسرة اللص ولكن بنور التوحش والبربرة وقل في نفسه

ــ لقد صدق حدسي وعدنا الى ماكنا من ان الحب هو السبب

ثم مال الى الفتى وقال

ــ وهل يعلم زوج زليخة السعيد بهذا الحب الذي لايقابله بالمثل

فقال سليم بغنةٍ حزينةٍ لم يدر انها وحدها تكفي اللص مؤنة استنطاقهِ لاستطلاع خفاياه ــ اوّاه انه لايدوي ثم ما زل سليم باللص حتى وعده هذا بالأ يأتي امرا الا بعد مشورة الفتى وله لقاء ذلك ماشاء من المساعدة على اختطاف الكونتة من غير ان يؤذي زوجها فارتضى اللص بهذه الشروط ولكنه قال ان عمله لايتم الا بمساعدة رجاله الذين يتعين عليه مخابرتهم وهم في تلك الاونة متفرقون في انحاء المدينة ولكنهم يجتمعون في حانة مخصوصة حيث يظنهم الناس بحرة قارب ينتظر لامر على ان رئيسه يسمى جاكوبو والرجل لم يكن الا من اخصاء اللص ثم ان ذلك الخبيث قال لسليم

ــ خذ هذا الختم لجاكوبو وقل له ان ينتظرني في موضع القديس مرقص كل ليلة عند نصف الليل وانت لا تنس ان تجيئني هذه الليلة بزجاجة اخرى من الخمر لان الوحدة قتالة

الفصل الرابع عشر

(جاكوبو)

وكان سليم غير مقيد في اعماله بل متمتعا بملء الحرية لان مولاه كان

يرتاح اليه ويستأنس به في الخدمة البرية والبحرية ولذلك لم تكن اعماله كثيرة فكان وقته فارغا على الاكثر

ومن ثم فانه احدث في ملابسه بعض التغييراذ لبس رداء حريريا معرقاً بالزهر البديع الالوان ووضع على رأسه قبعةً قرمزية اللون فاصبح يدل بملابسه الجديدة ادلال الخدم الذين يؤثرهم ساداتهم وشرع يطوف من موضع الى اخر مزدريا برفاقه كأنه يحسب ان انتحاله الكبر والعظمة يجعله في مقام اعلى . وكان الفتى يفكر في حاله فرأى منه ماامله واضجره لان الخيانة لم تكن من بنات صدره وانما دعته الحال اليها

ونحن لانخفى على القراء الالباء ان سليما لم يكن من الفتيان ولكنه كان فتاة من بنات الجنوب اللواتي حملهن الاسر الى فينيسيا فاتخذت لباس الذكور ستراً لشانها وذلك منذ كانت بين المحاربين في قبرص وظلت على اختفاء امرها مدى اسرها فلما اتصل امتلاك ناصيتها بولي امرها الكونت علقت بهواه وتيمها شانه وما زالت تكتم غرامها وتعالج بالصبر فوأدها حتى رأت حبيبها متيما يشكو هوى زليخة فاخذتها الغيرة منها وكفى بما مر شاهدا على انها ما عرفت ان اختفاء شأنها ابعد عنها حبيبها فعقدت العزم ان تغير الزي الرجولي وتعدل الى الاناثي فتظهر محاسن وجهها واعتدال قامتها وتحلى باشارات قومها اليونان الاماجد وتشهر مقامها العالي اذ هي احدى اميرات بلادها فتنال ما ارادت غيرانها رأت غرام الامير بزليخة يزداد فتولتها البغضاء الشديدة متجهةً صوب تلك الغادة الحسناء ولذلك ارادت له النصر وسعت اليه في كل سبيل على انها لما بلغت ذلك الحدّ ورأت ان الامعان في طرق الخيانة موصل الى اذية

حبيبها اخذها الرعب عليه واكبرت ان يلم به شيء سيما اذ علمت ان اللص يكره منه ما كرهت هي من زليخة واللص جسور مقدام لا يخاف الله ولا يهاب انسان فخشيت منه المغبة على الحبيب

وكانت تسير والافكار هذه ملء خاطرها حتى بلغت قصر القديس مرقص وفي جواره الحانة التي يتردد جكوبو اليها

ولنعد بالكلام عنها الى تسميتها سليما حتى تكشف الطمة اذ كان ذلك مقدوراً

فان الفتى اراد عند بلوغه الحانة ان يعرج عنها الى احد الازقة واذا بصوتٍ يناديه قائلاً - اين تمضي عجولاً ايها الغلام

فنظر سليم ورأى رجلا لابساً ثياباً مخمليته وعلى جانبه سيف قصير وفي ملامحه ابتسامة مخصوصة فتبينه وعرفه الشجاع بوناتي فسأله قائلاً

- الى اين أنت ماضٍ

— لا شغل لك معي لانك لم تؤمر بمراقبتي

— لا يابني وانما سألتك الى اين انت ماضٍ

— استودعك الله لان تغلك غير شغلي

فنظر الشجاع اليه بعينٍ متقدةٍ كلهيب النار وفي لحاظه معنى غريب وقال في نفسه لابد لي من سبر غور هذا الفتى ووضعه تحت مراقبة شديدة ابين بها سره لاني ارى من تردده وهيئته ان المهمة السائر بها ليست مما يمتدح

قال ذلك وسار وراءه يقتص اثره حتى رآه قد دخل حانة وجلس في قاعة يتدبها ... فلم يلحق به ... ولكنه وقف عند الدهليز وراء ...

وبدأ يرقب حركات لفتى فرآه ينظر في الحانة ذات اليمين وذات الشمال حتى ابصر رجلاً في لباس النوتية لكنهُ عتل زنيم يظهر الشقاء على محياه وبعد اذ باداه بالحديث اظهر له خاتماً فانس الرجل به وتكلما طويلاً فلما رأى الشجاع ذلك خفق فؤاده في داخله لانه عرف ان الرجل الذي كان سليم يكلمه ليس احد القرصان المشهورين ولو تزيا بزي البحارة لان في حركاته وسكناته ما يظهر حقيقة حاله . فاعتمد هذا الخاطر واتخذه سبيلاً يستطرق منه الى حل الرموز على انه مهما انصت لحديثهما لم يكن بالمستطاع لديه ان يدرك منه شيئاً فعقد العزم على اقتصاص اثر النوتي ليرى كيف يتسنى له مبارحة البر اما سليم فقال هو بين يدي في كل حين وبكلمةٍ واحدةٍ افشي سره لمولاه ولكني لا ابوح بهذه الكلمة الا في ظروف مخصوصة ثم نهض سليم من مجلسه يريد الذهاب فاختفى الشجاع عن موقفه حتى اذا مضت نصف ساعة على ذهاب الغلام عاد بوزتي الى الحانة بلباس البحارة الذين قضوا في الاسفار زمناً طويلا ظهرت اثره على ثيابهم باهمال الاعتناء بها رثة كمن جمع بعض دريهمات اراد التلذذ بالانفاق منها فرأى النوتي المقصود المعرّف عنده بلابس القبعة الفرنجية جالساً لوحده

ولما جلس امر بزجاجةٍ كبيرةٍ من احسن الخمور ثم التفت الى النوتي بخشونة امثاله وسأله الشرب معه فلباه جاكوبو تابية من كان في مكانه من الدناءة والخسة سيما متى رأى الخمر الفاخرة تترقرق في الكاس شرب منها وما عتم ان دارت بينهما الكؤوس وطاب الحديث من مثل ما يدور عادة في مجالسهم ولذلك لا حاجة بنا الى الالماع بذكره

وبينا كان الحديث اخذاً مجراه دخل القاعة جمهور من النوتية واشاروا بالتحية لجاكوبو فعلم بوناتي انه في مجتمع القرصان ومنتداهم

ولو اراد لسعى فقبض عليهم اجمعين وساقهم كالشياه للذبح جزاء قبائحهم ولكنه كظم الغيظ وكتم ما في الصدور لغاية في النفس لاتخفى على الناقد البصير ذلك ان له مصلحة خصوصية غير دابه لمصلحة الوطن ولخدمة الدوج امير البلاد

وكأنه شرب واكتفى فانزوى الى زاوية هنالك وتناوم ولكن مع كل اصغائه لما دار من الكلام لم يفهم شيئاً يؤدي به الى المقصود الا انه رأى بغتة ان النوتي الذي كان يجالسه قد نهض وخرج من الخان فلحق به سائر رجاله واحد بعد اخر

اما بوناتي فدنا من صاحب الخان غير مكترث بما كان واداه ثمن الخمرة شاكيا من ابطائه ثم خرج فاسرع الخطى حتى ادرك الرجال وقد نزلوا في قارب كبير وشرعوا يجذفون فحل زورقا صغيراً وانحدر اليه وتوارى في الظل ابتغاء اكتشاف مقصدهم وكان الميناء غاصاً بالسفن من سائر ضروبها فما زال قارب القرصان يسير حتى انتهى الى قارب آخر كان في طرف المجتمع فلما اقتربا صعد النوتي جاكوبو اليه واذا هنالك رجل واحد فتكلم الاثنان طويلاً وهما على الظهر ثم عاد الرجل الى اصحابه وعاد بهم الى نحو البر وعلى بعد منه الشجاع فقصد قاربهم الترعة الكبرى حتى صار امام قصر فاركاس فلبث الشجاع هنالك في ظل الجدار ورأى سلما يطل على القصر ويكلم اللص ثم تحرك القارب ووقف تجاه المرسى فسارع الرجال ونزلوا الى البر ومنه

ساروا في الازقة الضيقة المباطة التي تخترق كل الجزيرة مارة فوق الجسور وما زالوا سائرين حتى الدهليز المهمل الواقع وراء قصر الكونت ادريان وكان ذلك حوالي الفجر او لم يبق من الليل الا ساعة وعند ذلك لم يبق في القوس منزع بل اتضح للشجاع ان النوم على اهبة ايقاع الاذى فاسرع للحال وحشد من احباء آل فاركاس قوماً يعتمدهم واوقفهم في الموضع الذي كان فيه واوعز اليهم ان يمنعوا الرجال عن البروز ثم ذهب لايقاظ الكونت واعلانه بالخبر

الفصل الخامس عشر

(اقالة هائل)

الا ان في تلك الهنيهة وقع في داخل القصر حوادث ذات شأن مذكور ذلك انه لم يكن يخفى على احدٍ ان البنادقة كانوا يدينون لاحكام جائرة لكنها فيهم انفذ من السهم وامضى من السيف وناهيك بانه متى اصدر مجلس الثلاثة او ندوة العشرة او موتمر الثلثمائة حكماً فليس يستطاع التعرض لنفوذه ولو مهما كان المعترض عظيما ولا يحول دون القوة الاجرائية اعتبار الوقت ولا يقوم لديها عذر من الاعذار وكان من جملة حوادث تلك القوات الجائرة ان مجلس الثلاثة انفذ حكمه باستقدام الكونت ادريان اليهِ في تلك الساعة من الليل اي قبيل الفجر بساعةٍ فجاءت رسله وايقظت الامير من منامه فنهض مذعوراً ولكنه لم يتقاعد عن تلبية الامر بل اسرع الى لبس ثيابه الفاخرة ليظهر بها لدى الظلمة الذين يحكمون بالقوة والجور حاسبين ان الامة لا تعرف

اسماءهم لان من يجسر على معرفتهم والتلفظ باسمائهم يلقَ الموت قصاصاً
اما ادريان فامتعض من استدعائه في تلك الساعة وهو عروس الى
جانب عروسه ومع معرفته بهول ما يفعل اللثام لم يخش بأسهم الطائل
ولا هاله عزمهم وحولهم ومع انه كان نسيب الدوج وميالاً الى معاضدته
فان صبره لوطنهِ كان اعظم وفي ذلك سلامته من العدوان ولكنه لم
يداخله الظن بان كبير الحكام الثلاثة كان شريكاً للقرصان ونصيراً
لزعيمهم الشقي وانه انما دعي في تلك الساعة من الليل ليفسح للص مجالاً
يستطيع به أن يتم اربه

وكان مقام ذيالك المجالس وسائر دواوين الحكومة في ذات قصر
الدوج فلما بلغ ادريان اليه صعد على الدرج الكبير فاجتاز عدة دهاليز
بعضها مظلم والبعض مستنير بنور ضئيل حتى انتهى الى حجرةٍ صغيرة
على بابها حرس مخصوص فلما بلغها اقام فيها نحواً من خمس دقائق ثم
دعي فدخل حجرة اخرى كانت مبلطة بالرخام الابيض والاسود اما
جدرانها فمنسدل عليها ستائر سوداء تلقي على الموضع ظلاماً لا تخترقه
الابصار الا على نور ضوءٍ ضئيل كان في وسط الغرفة وحدج الامير
الموضع ببصره فرأى في صدره مائدة جالس حولها ثلاثة رجال والمائدة
ثلاثة اجزاء جزآن منها بغطائين سوداوين والثالث قرمزي اللون وعلى
مائدة اخرى الى جانب تلك رجل في هيئة كاتب الديوان الا ان
على وجهه لثام وفي يده قلم معدٌّ للكتابة

وما عتم ادريان ان رأى حتى سمع صوتاً يناديه قائلاً - اي
كونت ادريان لقد شاع عنك منذ بضعة ايام اخبار اوجبت تحركك

الا وهي انك فزت باهلاك اللص كوزمو المعروف ببلاء فينيسيا

— كان ذلك عن ارادة حضرة صاحب السمو الدوج المعظم ومصادقة مجلس النبلاء الجليل

— وقد اتصل بنا عن مصادر موثوق بها ان الرجل مازال حيا مرزوقا وانه قد تجاسر على ان يرفع رايته تجاه اسد القديس مرقص بل زادت به القحة حتى دخل فينيسيا وما برح مقيما فيها

— نعم بلغني ذلك والغرابة كل الغرابة في ان يكون ذلك ممكناً في عهد حكومة رابطة الجأش ابويّة العناية لايفوتها الاهتمام بمصلحة احقر بنيها

قال ادريان ذلك وفي غنة كلامه مايدل على تهكمه فاجابه الزعيم

— اذا كان موجوداً في فينيسيا فانا لنجدنه ونقتص منهُ بما قدمته يداه غير ان ذلك ليس مما حملنا على استدعائك لاستخبارك وانما اسألك كيف تقرر عن ميتته وهو لم يزل حياً

— اني فزت بتغريق سفينته تماماً وبعد ذلك انبأني القوم ان كثيرين من بحارته رموا بانفسهم من الظهر الى البحر وكانت المسافة الى البر فسيحة فظننت انهم غرقوا جميعاً

— ومع ذلك فهو لهذا اليوم مقيم بيننا بمركب اكبر من ذاك واقوى وفي صحبته بحارة يزيدون السابقين حولاً

— ان في الجزر اليونانية قوماً من رعاع قومها يمثلون اسطولاً قرصانياً

— وهلاّ صدر اليك من الدوج امرٌ جديد بان تتبع اثار اللص

ونقتنصه لانه قد اسرف في البلاء وافرط في مضرة تجارتنا حتى صار وجوده عارًا على بلادنا

— بلى ولكن سمو الدوج فسح لي باربعة ايام افضيها في الاهبة كان سموه اراد التفسحة لي بسبب زواجي اخيرًا

قال ذلك وعض على شفتيه لاخفاء عواطفه المضطرمة

— لقد تلطف بك على ان خدمة الدولة مقدَّمة على كل شيء وهذا اللصّ قائم في الميناء وسفن الدولة و بوارجها راسية من غير عمل ورئيس ربّانيها يتنعم بمؤانسة عروسه

وكان الكونت ادريان قد عرف صوت الكونت فالاس فحدثته نفسه بان يتقدم اليه و يرفع اللثام عن وجهه و يقبض عليه من لحيته غير ان الادب وحب الحياة غلباه على الانفعال سيما وان جزاء الاهانة موت ذريع يقضي به قبل ان يرى الحبيبة فكظم الغيظ ولم يجد للجواب سبيلاً غير الانحناء قليلاً ثم مالك قياد نفسه وقال

— واذا وقع الامر لدى سعادتكم موقع الرضى فان بارجة الدولة ستعد للسير بعد ساعة من الزمان

— يسرنا منك هذا الخضوع والاهتمام ومتى فزت باعدام اللص يسرنا رجوعك ايها الربان الهمام لاخذ راحتك

وقبل ان ينبس ادريان ببنت شفةٍ قرع جلجل صغير فخرج به من تلك الحجرة بمثل ما دخلها من الاحتفال على انه كان اسعد حظاً من سائر الذين دخلوها مرة فخرجوا منها الى وادي التنهدات حيث يلقاهم الموت الذؤام او يقلبون في السجن الهائل حيث لاسميع ولا مجيب الا ذيئك

الديان العادل العارف بالخفايا

وكان ذلك اخذاً في مجراه وحوادث القصر على غير مايرام وكانت زليخة قد رأت زوجها ذاهباً فنهضت من فراشها ولبست ثيابها من غير ان تدعو اترابها النائمات وخرجت من حجرتها الى جهةٍ من القصر لم تكن ماهولةً واطلت منها على البحر لاستنشاق نسمات السحر وكان المنظر بديعاً فشرعت زليخة تجيل فيه انظارها وتتنعم بجماله مستأنسة بلذيذ افكارها الحائمة حوالي زوجها وفيما هي مستسلمة لهاتيك المسرات حانت منها التفاتة من البحر الى الحجرة فرأت فيها نصب عينها ذيالك اللص الجريء في الزي المنتحل على انه لم يكن ليخفى عن نظراتها النقادة فقال لها

— لقد عاد بنا الدهر للاجتماع وانتِ عضضتِ الطرف عن تحزيري فماذا كانت العقبى الا انها صيرورة زوجك واقفاً لهذه الساعة لدى مجلس الثلاثة وانك لحديثة عهدٍ في فينيسيا فلا تعرفين مؤدى هذا الوقوف

فنهضت الفتاة تريد الهرب من الحجرة لكنه فتح ذراعيه وقبض عليها قائلاً — تمهلي عليّ لاقول لك قولاً يصيرّك طوع امري

— قل سريعاً والّا فوالله افر من بين يديك واشكوك توّاً لمسامع الدوج

— اتحمين هذا الرجل

— احبه من كل قلبي

— اتخلصين حياته اذ تفدينها بحياتك

— افتديه بالحياة والسعادة جملةً

- اسمعي اذاً واعلمي ان الكونت دريان قد تجاوز سنة فينيسيا واستحق الموت

— كيف ذلك ولماذا

— لانه تزوج منكِ وانتِ امةٌ

- هذا كذب صراح وتلك تهمة فاضحة

— بل اني اشتريتك من تاجر يوناني واذ اغراني جمالك ربيتك لذاتي واخفيت الحقيقة حباً بك ورفقاً وهذا هو صك الشراء وعليك بالسؤال من كل فتاة بندقية تنبئك ان من كان بندقي المولد لايتزوج بالغريب لاجنبي فان فعل فالجزء صارم اما الزواج بالاماء فجزؤه الاعدام بل ان ميتة من ارتكب هــذا الذنب هائلة لا أذصلها لك لئلا ازيدك انقباضاً

فقبضت على كنتا يدها يأسا من حالتم وقالت - وماذا تريد ان اعمل

— الحقي بهِ وتناسيه ودعيه حرًّ فان بقيتِ هنا شرت امره بلسان الاسد انظري هذه البطاقة تجديرا من توقيع التاجر لذي باعك مني ونشعر بوصول الثمن اليه ومتى خرجت من فينيسيا ترسلين البطاقة اليهِ فيدرك سرها و يعذرك ثم ينساك

فعظم الامر على المرأة وصاحت ياربي اعني في هذا الضيق فناداها اللئيم قائلاً — عجلي بتقرير عزمك وهذه الورقة من ضمن ورقةٍ اخرى تحوي الايضاح الكافي تحسب كالحكم على الكونت فاركس بالموت فتعالى وهلك قاربي بمن فيه من الاراسل لمنازين قاعة على مقربة منا

ينتظرنا ولا تمضي ساعة علينا الا ونحن قد تخلصنا من هـذه البلاد الثقيلة الى الابد

— وهل ينجو اذا رحلت

– نعم لان التهمة قائمة بهذا الصك فقط

ـ اذاً خذني معك ايها الرجل الهائل ودع الموت يخلصني من متاعب حياتي لاني افضل الموت كسيرة القلب على ان اراه يموت فها انا بين يديك ايها اللص

واذا بصوتٍ كالرعد القاصف يقول ــ قفا

وانجلى الامر عن الشجاع بوناتي واقفاً بهما ومن ثمَّ التفت الى اللص قائلاً ــ لكنك ايها السيد اللص المحترم ألا ترحل من ديارنا على ملء خاطرك فاما الآن فالمداعة لا تجديك نفعاً لان جاكوبو وكل رفقائه بين حيّ مأسور او ميت غير ما سوف عليه او جريح يئن ندما ولم يبق عليك الا التسليم بملء التؤدة لتجزيك الجمهورية بما ترى

فرفع اللص غدارته وقال ــ اذا دنوت مني خطوة واحدة جعلت هذه السيدة بين رجليك رفاتاً هامداً

وفيما هم كذلك واذ بسليم قد جاء راكضاً بوجهٍ مكفهرّ فلما رأى الشجاع عاد الى الوراء مذعوراً على ان اللص فقه معنى هيئة سليم ولئن لم ينطق ذاك بكلمة واحدة وكان واقفاً بجانب زليخة والغدارة مصوبة نحوها والشجاع بوناتي لا يجسر على مهاجمته خوفاً عليها من العطب

وفيما هم كذلك اطلق اللص النار فسقط الشجاع وزليخة الى الارض واذا بالكونت ادريان قد دخل الحجرة مسرعاً صوب امرأته فرآها قد

سقطت مغمى عليها ليس الا فنادى باترابها اليها واذا بها فتحت عينيها وقالت — ياالهي هذا صوته فقد قيل لي انه مات

— بل كل شيء حسن النهاية ياعزيزتي ثم رفعها اليه فلم تكن تستطيع كلاماً ولكنها شرعت تبكي على صدره وعندئذٍ نهض الشجاع من الارض وهو يفرك رأسه وكانت الرصاصة قد مرّت على جبهته فخدشتها ورمته الى الارض من غير ان تؤذيه فلما وقف على قدميه اسرع نحو الشرفة التي نزل اللص منها ليراه فلم ينظر له اثراً وكان من امر هذا الشجاع انه لما اراد المجيء لايقاظ الكونت واطلاعه على سره قرع الباب فرأى الخدم فانبأوه ان الكونت خرج مدعوًا الى مجلس الثلاثة فحاول اقناعهم بما ارتأى من الخطر على سيدتهم فكان كالكاتب على صفحات الماء لانهم استعظموا الرواية فلم يحفلوا بها فعاد الى حيث كان بقية القرصان فاحط عليهم بمن اقامهم على خفارتهم فقتل بعضاً واسر بعضاً وفر آخرون . ولما وقعت الحادثة ودخل القصر وكان ما كان عاد فرأى الكونت وقص عليه حكاية الوقع مختصرة فقام ادريان وقعد وسلم زليخة لعناية النساء القائمات على خدمتها وامرهن ان يلبسنها ثيابها سريعاً ثم عاد باحد ضباط بحارته وامره ان يعد البارجة التي تحت امره وألاّ تمضي الساعة الا وهي متأهبة للسفر وفي خلال ذلك يستقدمون النائب روبرت ستانلي ويبلغونه الامر بالانضمام الى رئيسه على ظهر البارجة اما الشجاع فنال من الامير شكراً وثناء وسار ليبحث عن اللص في المدينة اذ كان قد رآه احد البحارة انه تدلى من فوق الشرفة وسبح حتى ادرك البر فخرج اليه واختفى غير ان جهد الشجاع ذهب ضياعاً لانه فتش في

كل المدينة فلم يقف للشقي على اثر

اما الامير ادريان فجلس الى امرأته على مائدة الطعام في الصباح وصرف من حضرتها كل الخدم ثم قصَّ عليها ما كان من امر المجلس الثلاثي وانتظر ان يكون تأثير الخبر فيها مهمًّا ولكنه لم يرَ الامر وفاق انتظاره لان تأثيراتها من فعلة اللص كانت بالغةَ مداها حتى كادت تستنزف تاثرها على انها قالت

— سأنتهي من اهبتي بمدى نصف ساعة

— اية اهبة انت تعنين

— الاهبة لمرافقتك

فاحمرّت وجنتا الامير سرورًا بصحبة مالكة فؤاده وما عتّم ان ارتضى بذلك لان استصحاب النساء لم يكن محظورًا وانما لم يخطر له ببال ان يحملها اعباء الاسفار الخطيرة فسر بفجاءة الخبر وطلب اليها الاسراع بالاهبة ذلك ان تأخذ بضعة اثوابٍ لائقة وان تستصحب معها احدى الاتراب فسارت لتقضي اللبانة وباشر بنفسه اعداد لوازمه حتى اذا حان الاوان كان كل شيء معدًّا الا روبرت ستانلي فانهم بحثوا عنه طويلاً فلم يجدوا لهُ اثرًا وانما علموا انه خرج في الليلة السابقة من داره فلم يرجع اليها ولم يكن بين الناس من يعلم عنه خبرًا على ان مثل هذا الاختفاء كان متكاثرًا في تلك الاونة ومحسوبًا من سياسة الحكومة ولذلك لم يكن من يجسر على الخوض في مثل هذا الموضوع

ولما انتظرت البارجة طويلاً ولم تنل اربًا اعطيت لها الاشارة من البر فسارت تخترق العباب من غير صحبة نائبها الاول الذي نتتبع في

الفصل التالي خطواته ونروي حكاية امره لئلا نرمى بحفظ شيء من الواقعة سرّاً عند القراء مصاناً

الفصل السادس عشر

(النظيران)

ان روبرت ستانلي نال من لدن مولاه الدوج السماح بزورة ابنته ومسامرتها ولذلك لم يكن ذيالك الفتى العاشق بن يهون عليه ضياع الفرصة متى سنحت على ان من الضرورة القصوى ان يأتي لزيارتها خلسةً عن عيون الرقباء لان اباها كان قد رفض تزويجها من الكونت فالاس على اعتلاء قدره بدعوى انها صغيرة السن فصار الامير هذا مناظراً شديد الصولة على نظيره ومعلوم انه لم يكن يهاب الدوج لان حكومة هذا لم تكن الا بالاسم فقط والحاكمون فعلاً هم اعضاء المجلس السرية الذين تكرر الالماع الى ذكرهم . وعلم مما مر ان فالاس كان رئيس مجلس الثلاثة واشد اولئك الظلام بطشاً واكثرهم . نفوذاً ولذلك كان من البسطة بحيث لايستهان بمقامه ولا يستخف بعدوانه فكيف يصبر على مناظرة مدارها البنية التي على احرازها عاق الآمال وبنى القصور والعلالي فالموت اذا شاء في كفيه وبين شفتيه يجعله جزء من امتعض منه فكيف من اساء اليه غير ان روبرت لم يكن من الجبان الذي تخور عزائمه وترتعد فرائصه جزعا من رجل يريد به شراً وناهيك بان الامر ذوبال وفي هوى بيانكا يبذل العاشق كل مرتخص وغال

ومع هذا لم يكن الفتى ليأسل ممن يريد الالمام بالخدرة التي يهواها

ولذلك كان يتستر في زورتها قبل اشتهار خطبته عليها لئلا يضيع عرضها مضغة في افواه اللئام

اني اضن بعرضي ان يلمّ بهِ   غيري فاهل اتولى خرقه بيدي

فاخذ الليل ستارًا وشرع يتردد عليها حينًا بعد اخر بمساعدة احدى اترابها وسيدةٍ اخرى من المقربات اليها فيقيم لديها الساعة والساعتين تاليًا حديث غرامه مستانسا بما يلقى من ميل الحبيب

ولما كانت الليلة السابقة لسفر البارجة ذهب روبرت لزيارته قبل الساعة المعتادة اذ كان الدوج ساعتئذٍ يقابل بعض سفراء الدول مقابلةً طويلة الذيل واما الفتاة فكانت منفردةً لوحدها صرفت كل خادماتها ولم تبقِ على مقربةٍ منها الا المرأتين المطلعتين على سرها وذلك توقعًا لزورة الحبيب

وقضى روبرت قبل خروجهِ من دارهِ ساعةً في التزين والتعطر ثم لبس الفخر ملابسه وتقلد حسامه ووضع غدارته وفوقها رداءه ثم تقنع بلثامه حتى تنكرت معرفته فاستطاع ان يجوب الازقة ضيقة المتعرجة وصولاً للقصر من ورائهِ وانما تجنب الذهاب في طريق الترعة الكبرى ابعادًا للظن وامناً لهُ ان يؤخذ به وكانت الازقة التي اختارها قليلة السابلة لا يمر بها الا قاصدها ولذلك لم يحترز روبرت على ظهور امره كما دلت على ذلك سوابق احتياطه على انه لو رأي ان وراءه على بعدٍ قليل رجلا يترصده متأثرًا خطواته متابعًا حركاته وسكناته لانزعج واضطرب لما يعهد من شان حكومة بلاده وسوء فعالها سيما في حاله وكان هذا الرقيب خبيرا اذ دلت طرائق مراقبته على تعوده المهنة بحيث لو التفت

روبرت الى الوراء لما عرف من امره شيئاً بل لحسبه احدى نتوات الجدران التي مرّ بها ومع ذلك كان الفتى الباسل غارقاً في بحار افكاره متلذذاً بانتظار حلاوة الاجتماع القريب

وما زال هذه حاله حتى بلغ باباً سرياً فاعطى عنه الاشارة المتفق عليها واذا بالباب قد فتح فدخله واسرع الى ملقى حبيبته بعد اذ لفظت في الدهليز بعض الكلمات ليس الا فلما صار الى حيث كانت بيانكا لاقته بما توجبه عليها عاطفة الحب ثم جلست الى جانبه وبدأ العاشقان يتطارحان ما يوجبه القلبان الملتهبان غراما وكانت المرأتان الخليتان جالستين على بعدٍ عنهما فلم تفقها معنى تلك المطارحه بل حسباها خالية من المعنى وهكذا مرت الساعة والساعتان والعاشقان في نعيم مقيم لم يُقطع حبل حديثهما سوى لاستماع عزف آلة الطرب حيناً قصيرا حتى صار الوقت قبل نصف الليل بنحو ساعتين وآن افتراق العاشقين فنهض روبرت واذ آنس من المرأتين بعض الاغضاء تعانق والعشيقة هنيهة من الزمن حسباها زبدة العمر ولذة الحياة وافترقا الى حين لم يكن يعرفه الا الله تعالى

ثم سار روبرت لاحقاً بأثر الرفيقة الى الباب السرّي فنفحها هنالك شيئاً من المال الذي جمعهُ بعرق جبينه والمجازفة بحياته حتى فتحت له الباب فخرج الى الفضاء وما أقفل الباب وراءه الا ورأى امامه اربعة رجال من الدرك المتصل بمجلس الظالمين فتقدم واحد منهم الى امامه متأدباً وقال

— اتشرف بمخاطبة الخواجا روبرت ستانلي

— نعم ذلك اسمي

- تفضل اذاً واصحبنا

— لماذا والى اين

- نحن نطيع الامروانت ادرى اذا كان ضميرك سليما ولم تأت بما يكدّر المجالس العليا منك

واذ رأى روبرت قد وضع يدهُ على قبضة حسامه صاح برجاله قائلاً — هلموا واحيطوا به

— يا للعار فاني غريب الديار وانكليزي الاصل على اني في خدمة جمهوريتكم

- لكنك هرطوقي خارج عن مذهبنا ومع ذلك فاذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب

ففهم روبرت ما اراد الرجل وسكت على ضيم مستسلما لحكم القدر فسارا به في طريق سرية متعرجة الى داخل القصر فجسر التنهدات فالسجن حيث اقيم في محبس ضيق الى ان يضيء الصباح فيحمل الى حضرة الثلاثة

ولو التفت الكونت ادريان عن خروجه من حجرة الاستنطاق لدى الظلمة لرأى هيئة صاحبه واقفا في احدى الزوايا وهو مقيد اليدين والرجلين وعلى رأسه قبعة تستره وتنكره غير ان الامير سار مسرعاً لان القوم كانوا يحثونه على ذلك فظل يجهل ان اخيه الباسل لحق به لدى الظلام

وكان بعد خروج ادريان من حضرتهم انهم استقبلوا روبرت فرأى منهم ما رآه صديقه من قبل على انه نظر اليهم بالانفة وعدم المبالاة

وشيء من الاحتقار لسوء ادارتهم فسألوه وهو يرفل بقيوده بعض سوألات لا شان لها ثم تدرجوا منها الى ما ياتي

- لقد رآك بعضهم خارجاً من قصر الدوج في الليلة الماضية في ساعةٍ متأخرةٍ

— بما ان سعادتكم تقولون ذلك فلا أرى من مجال للاعتراض

— احذر من ضياع وقت المجلس واجبنا ماذا كنت تعمل في حجر القصر الخاصة

- ليس لي ما اقول غير ما تعرفونه على ان شفتيَّ مطبقتان

— ايها الفتى قيل لنا انك شجاع باسل الى حد التهور والجنون غير ان في فينيسيا طرائق لاستنطاق اشد الناس احتمالا

- عرفت ان عندكم من التعذيب والقسوة ما لم يعلم به ظلام اسبانيا ولكنكم ان شئتم يمكنكم ان تجربوا ما عندكم فيَّ فتجدوني صامتاً لان الشغل الذي كنت فيه في القصر خصوصي

— اكان ذلك بقصد الاجتماع باحدى السيدات

— اجبتكم من قبل

— تفكر ايها الشاب واعلم ان البارجة التي تخدمها ستسافر عما قليل لاقتناص اللص فاما انك تزيد فخارك بما تكسب من الظفر واما تغمض عينيك من العالم الى الابد منها نحن واضعون لك احد لامرين الجواب او السكوت ليكون لك احد ذينك الجزئين فنعيد سؤلك وهو ا كنت في ليلة الامس في الحجر الخاصة للدوج

— نعم

— بمن قصدت الاجتماع هنالك قل ولا تخف لاننا نستطيع ان نحميك حتى من الدوج نفسه

ـــ لاجواب عندي

فعند ذلك اعطى الظلمة اشارةً مخصوصةً فأُخذ روبرت الى الحجرة الخارجية وبدأ الثلاثة بعد خروجه يتباحثون ثم دعوا برئيس الدرك وبلغوه بخلاصة اوامرهم فانحنى امتثالاً من غير ان ينبس ببنت شفةٍ وخرج لاتمام ما ارادوا فاعطى الاشارة لخفراء الحبس فعادوا بالفتى اليه في طرق سرّيةٍ خفيةٍ عن عيون الناس ثم صعدوا به الى السطوح لان اولئك الرحماء كانوا يسجنون الذين يغضبون عليهم في محابس تحت الماء مدى ايام الشتاء وعلى السطوح معرضين لحرارة الشمس مدى الصيف فلما وصل روبرت الى السطح عرف ما كان من نصيبه وان اولئك الخالين من كل شفقةٍ قد حكموا عليه بالميتة الشنعاء بعيداً عن النور والهواء ليجردوه من شارة الحب فدخل الحبس الهائل ووجده ظلاما قاتما وتركوه فيه ينقلب على الاسى ويلعن الساعة التي خدم بها تلك الحكومة الجائرة

الفصل السابع عشر

(المطاردة)

ومع ان فراق روبرت ستانلي كان صعبا على رئيسه الكونت ادريان كان لهذا الرئيس الباسل ما يسلّيه عنه بما كان من امره ذلك انه كان

منفذا في مهمة ذات شان عظيم ناهيك بما كان من مسرته باستصحاب امرأته المحبوبة التي كانت بين الخوف من وعيد اللص الجريء والرجاء بهمة زوجها المقدام تتنازعها حيناً عوامل الخشية وتجتذبها اونة ملاذ الاجتماع فتنسى او تتناسى هاتيك المخاطر وفي كلتا الحالتين لا تبوح بما كن ضميرها من الخوف لمالك فؤادها سيما وانها ظنت ان اللص فرّ من فينيسيا هارباً فذهبت اوعاده ادراج الرياح ولم يبق لاسباب خشيتها من وجود

وكانت البارجة لما خرجت من الميناء رأت في طريقها على مقربة من البر قارب صيدٍ فتكلم البحارة مع نوتيته فاشار هؤلاء الى وجود مركبٍ شرقي الميناء في منتهى الافق وانه كان منذ حينٍ قريب غير بعيدٍ عن المرسى وقد اتصل به منذ ساعة قاربٌ كان رجاله في المدينة فما بلغوا حتى اقلع بهم يشق عباب البحر

فعلم ادريان ان ذلك المركب هو للص الجريء واتباعه القرصان الاشقياء فاتجه بالبارجة صوب مسراه وبذل قصاري جهده في اللحاق به من غير ان يدرك له اثرًا وانما ابقاه سارحاً تحت نظره حتى تقضى النهار. ودنا الليل

غير ان الامير الباسل اراد البقاء على تأثر القرصان والحذر من ضياع مركبهم من تحت نظره مستترًا في ظلام الدجنة فاقام الارصاد والعيون ووعد المحسنين في الخدمة بالجزاء الوفر ولكن كل مساعيه ذهبت ضياعاً لانه لما اصبح النهار لم يبق في الافق شيء

فلم يرَ الامير الا ان يعقد العزيمة عن خوض البحار تفتيشاً عن الاعداء

اللئام غير عالم مكانه منهم وسبحان علام الغيوب

وكان في عزمه ان يسير بارجته في كل جهةٍ وان يعترض مراكب التجارة ويتفحصها ولا يزال على شأنه من البحث والتحري حتى ينال مراده من عدوه

فمرّت به ثلاثه ايام من غير ان يرى اثرًا وفي انقضائها رأى مركباً تجارياً محطم السارية مخط القلوع معطل الدفة حتى اذا رآه بحارته ابدوا للبارجة علامة الاستغاثة فلما دنا ادريان منهم علم ان القرصان احطوا على المركب ونهبوا ثمين متاعهِ وسبوا سيدتين من مركبه وعطلوا قواربه وساروا لايلوون على النوتية الذين اوشكوا الغرق

فللحال امر ادريان فاصلح لهم القوارب وحمل منهم رجلين ليشهدا على القرصان ونشر كل قلوعه وسار يقتص الاثر فما عتم ان علم انه قصد احد مين كريت فاخذ منها زادًا وماءً ثم سافر جنوباً فلحق ادريان به حتى بلغ مجتمعاً من صغار الجزائر وهنالك رأى مرسى تحيط بهِ الاشجار وظن الجزيرة تخلو من السكان فاتخذ قارباً صغيرًا وشرع يطوف الارجاء استقصاءً عن اللص تاركاً البارجة امنةً في مرساها وكان من امرهِ قبل ان غادر البارجة انه اوصى الذين فيها بالحيطة والحذر والتيقظ للطواريء لان القرصان دهاةٌ وفيهم نشاط وخدعة ولا يبعد ان يأخذوهم في احدى الليالي على غرة من خفارتهم فيبلون فيهم بلاء حسناً وكان يود ان يستصحب زليخة الاان في ركوبها قارباً صغيرًا ما يسلب راحتها ويبليها من المشاق بما لا يطاق ولذلك عهد بخفارتها لرجال امارته ولسليم الخادم الامين وكانت البارجة مستترةً من جهة

البحر لا يراها الا قاصدها وناهيك بانه يعسر وجود سفينةٍ تجسر على اقتحام بارجة حربية ذات كماةٍ وامراء وسلاح مكمل سيما وان الحيطة العسكرية كانت توجب على طائفة البارجة ان تقيم خفارة على صخرٍ غير بعيد عن موقف البارجة وهكذا مرّت بهم ايام طوال من غير حادثٍ يغير سكون حالهم حتى اوجب ذلك اسباب تخفيف الحيطة والحذر فصار البحارة يستطيعون ارتياد البر في الاحايين

وملت زليخة الاقامة في البحر فسارت في طايعة النازلين البر يصحبها وترافقها تربها

الفصل الثامن عشر

(التفتيش عن اللص)

ومرّت الايام والليالي على الامير ادريان وهو ينقب ويبحث بين هاتيك الجزائر لعله يهتدي الى مأوى اللص فلم يجد ثمة من السكان الا بعض الرعاة بقطائع المعزى غير ان الموضع لايخلو من قرى ومزارع ياهلها جماعة من الكرّامين الذين اشتهرت خمورهم يومئذٍ في الآفاق .

ولا خفاء ان اولئك الاقوام كانوا ينتحلون اسباب الكسب الحلال ظاهرًا وكلهم من فئة القرصان باطنًا ومن لم يكن لصًا فهو ابو اللص او اخوه او معوان لهُ على ما يريد ولذلك كانت الصعوبة كل الصعوبة في الاستخبار منهم عن كوزمو واعوانه سيما لانهم كانوا يحدثون عن فعاله متفاخرين متعظمين به غير حاسبين انهم يجدون لآثام ويحمدون المعاصي والشرور

ومع ذلك فان ادريان كان يبتدي‌ء بالتفتيش في البحر منذ الصباح الى المساء فمضت به الايام من غير طائل اذ كان يرى عديداً من السفن المختلفة الانواع الا تلك السفينة المقصودة حتى ملّ وخطر له ان الوقت يضيع سدى فعزم على العودة الى بارجته واذا به قد صبح جزيرة كبيرة الحجم في جانبها قلعة متهدمة لتقادم عهدها وهي قائمة فوق صخورٍ شاهقة على قربٍ من الشاطي‌ء وعند حضيض اكمتها قرية قائمة على انقاض مدينة قديمة

وللحال امر الربان فوُضعت الاسلحة في جوف القاربّ اخفاء لها عن العيون ولبس مع جماعة من ذويه ملابس نوتية مراكب الصعيد واتجه نحو الشاطي‌ء وفي عزمه الاستخبار عن القرصان بملء التؤدة والسكون لئلا تستشف مقاصدهم من حركاتهم وجعل المقصد الظاهر من مجيئهم الى البر طلب الزاد والماء على انهم كانوا في حاجة اليهما وما عتم ان دفعوا بالقارب الى البر من غير ان يراهم احدٌ وحملوا قرب الماء واكياس الخبز وزجاجات الخمر وساروا جميعهم نحو القرية فبلغوها وقصدوا الحانة الاولى فدخلوها وطلبوا طعاماً فاخرًا وخمرًا لذيذة فجي‌ء بها لان قيم الحانة رأى الدرهم بين ايديهم موفورًا فزاد في اكرامهم حتى اذا انتهى طعامهم نهض ادريان من على المائدة ومضى فوقف في باب الحانة وما عتم ان رأى مركبًا قد دخل الميناء وفيه اللص الجري‌ء بنفسه فلم يكد يصدق عينيهِ حتى اذا وعى ما رأى قال لجماعته بصوتٍ منخفض اي رفاقي املأُوا الوعاء من الزاد والخمر قبل ان يجي‌ء سواكم فيناظركم في احرازها

وما قال ذلك الا والبلدة قد هاجت وماجت وتراكض الرجال

والنساء والاولاد صوب الشاطيء اما قيم الحانة فقال لمن طالبه باعطاء الزخيرة

– لا تخشَ بأساً فان عندي من الزاد والخمر ما يكفيكم ويكفي غيركم على ان هؤلاء القادمين ولئن كانوا كثاراً وفيهم من اضناه الظما فانهم ليجدون كفاءتهم في مستودعات القلعة المتهدمة لانها لهم

قال ذلك وعلى وجهه ملامح المسرة وفي ثغره ابتسامة الارتضاء فكانت عبارته مزيدةً في وثوق ادريان بظنه في اولئك القادمين

واذ رأى القوم يريدون التزود سريعاً قال

– لا تسرعوا في ما تريدون لانه يعسر خروج قارب من هذه الجزيرة مازال المركب الكبير فيها لان الربان كوزموغيورّ على مقامه فيها ولا يريد ان يأتيها غريب

فلم يجب ادريان بشيء بل سكت صابراً ومضى فجلس في احدى الزوايا مستسلماً لحكم القدر فمضت به الساعات من غير ان يحدث شيء ثم دخل الحانه جمهرة من البحارة المارجين وما استقرّ بهم المقام حتى لغطوا صائحين بطلب الخمر فظلّ ادريان يراقبهم ويقلب طرفهُ فيهم من الواحد الى الاخر حتى علم انهم كلهم من عامة البحارة القرصان وان زعيمهم الشقيّ وكبار جماعته لم يدخلوا الحانة بل سروا توّاً الى القلعة المتهدمة فشرع يقلب فكره في الحادث وماذا يجب ان يعمل مردداً قول قيم الحانة في صحة خطرهم عن ركوب القارب ما زل المركب راسياً على ان صحة الخبر تحول دون نجاحهم وتمنعهم من نوال المراد ان لم يتمكن من الاجتياز الى الجانب الآخر من الجزيره حيث يسهل عليه الحصول

على قاربٍ يسير به الى البارجة فيجيء بها لاقتناص الباغي وهكذا جال الموضوع هذا في فكرهِ زمناً طويلاً حتى رآه صائباً فعوّل عليه وامر رجاله بالاهبة للمسير متى ارخى الليل ستوره مبيناً لهم مغزى حركاته

وفيما هو كذلك اذا بواحد من الضباط قد دخل الحانة وفي صحبتهِ رجلان من القرصان فنادى بقيمها قائلاً اين صاحب القارب الغريب

فلما سمع ادريان هذا السؤال امر رجاله ان يتفرقوا و يعملوا حسب اشارته اذا استطالوا غيابه ثم دنا من القرصان وحياهم قائلاً — انا رئيس القارب الغريب وانما جئت في التماس الخبز والخمر والماء فما ذا تريد مني وكانت لهجته وغنة كلامه تشبه لغة عامة البلاد

— ان سيد تلك القلعة يريد مكالمتك

فلما لم يرَ ادريان مجالاً للامتناع ولا سبيلاً للمناص لم يظهر الخوف والوجل ولا تردد عن الارتضاء هنيهة بل سار يتبع خطوات الضباط بملء التؤدة والسكون وكان معلقاً اماله بما هو عليه من اجادة التنكر واحسان النطق بالسنة اهل الجوار من البر والبحر على ان الموقف محفوف بالمكاره ويحتاج المرء فيه الى الحكمة والرشاد وكفى القوم احتسابًا منه انه دُعي لحضرة اللص

وكانت القلعة من بناء الاتراك العثمانيين الذين افتتحوا تلك الجزائر وقد شادوها لتكون مركزاً للحاكم منهم فلما غلبهم البنادقة عليها تداعت اطرافها لطول عهد هجرانها على انه بقي منها بقية تكفي للسكن ان لم يكن للدفاع فيها من قوم بلغوا حد الياس

وسار الضابط امامه والرجلان من ورائه لئلا يعدل الرجل عن

قصده بالظهور لدى حاكم القلعة على ماعرفوه فدخلوها وشهد ادريان حالها من الضعف في موضع والقوة في اخر وكان في طريقه اليها رابط الجأش ثابت الجنان لكنه لم ينبس ببنت شفة مدى طريقه

ولما صار فيها ادخلوه الى حجرةٍ وسيعة الاطراف في وسطها مائدة خشنة الصنعة حولها اثنى عشر مقعداً وكرسياً فوقها رجال بينهم اللص الجريء بعينه وميته فلما اطلّ ادريان من الباب اليها وقف هنالك كانه تردد في الدخول اليهم فصاح به اللص قائلاً

— ادخل واجلس هنالك

وكان على المائدة طعام وشراب فمال اللص الى ادريان وقال

— اتحب ان تشرب من خمرة كالابريا او من خمرة ليدو

فاخذ دريان كاساً مملوءة منها وقال — اعطني من خمرة كالابريا ان شئت

— من اين جئت وماذا تريد

— جئت من كالابريا حيث كنت اطلب خمراً يونانية لاحملها الى بعض الاسواق

— كنت تطوف في هذه البحار منذ بضعة اسابيع

— صدقت ياسيدي واسر اذا فزت بما اريد من الوسق على ان المال سهل الخروج من اليد لكنه عسير الرجوع ليها

— صدقت وهلا رأيت في طوافك شيئاً من البارجة البندقية التي يتأمرها الربان ادريان

— رأيتها ولكن بما اني لست من الكبار في البحر لم تخاطبني ولم سمعت

انها سائرة في طلب قنص ذي شان

— فقهقه اللص وقال - صرح ايها الرئيس وقل عمن تعني ولا تكتمني شيئاً لاننا هنا لا ننطق الا بملء الحرية

— انهم يقولون ان القرصان قد عادوا الى الظهور تحت رئاسة زعيمهم كوزمو وان الربان البندقي قد آلى على نفسه الا يرجع من البحر حتى يموت احدهما

— ان في اقوال الناس غرائب واما انت فماذا تقول

— انا تاجر ولا يهمني شيء من امر البارجة او القرصان لاني فقير لا يطمع بي احدٌ منهما

عندئذٍ دخل احد البحارة مسرعاً واستأذن في مخاطبة الربان فقال اللص

— ماذا تريد

— عندنا اخبار عن البارجة

— وما هي

— ان قومنا قد استاسروا ثلاثة منها

ففرك اللص يديه سروراً وقال فلياتوا الينا ومنهم نستخرج الحقيقة عن ذلك اللئيم

وليتصور القاريء حالة ادريان وما كان عليه من الاضطراب والقلق حين اذ رأى اربعة من القرصان يخفرون اسراهم وان هم الا امرأته زليخة ورفيقتها والخادم سليم

وزاد بلباله بما اضطر اليه من اخفاء امره والبقاء على حاله من الخفاء

وظاهر السكينة ليبقى حرًّا ويسعى في انقاذ الحبيب ونيل الغاية ولذلك كظم الغيظ وصبر ولكن على احر من الجمر

ونظر الى زليخة فرآها تعلوها صفرة الوجل وقرأ على محياها سورة الاضطراب والبلبال اما رفيقتها فكانت مذعورةً يكاد الخوف يقتلها ثم مال بنظره نحو سليم فرآه بادي المسرة ساكن الجأش كأن لم يكن ثمة امرٌ ذو بال .

فصاح الزعيم — اهلاً وسهلاً ومرحباً بالسيدة المحبوبة التي جاءتنا على غير انتظار فتفضلي واجلسي بيننا وعساكِ ان تذكري انك شرفتِ هذا القصر من قبل ثم انحنى ومد لها يده للمصافحة فقالت

— اقصر يدك فانها ملطخة بالعار ولا تستأهل ان تمسني واحذر من ان تلحق بي اقل ما يلم بشأني فتصبح عرضةً لانتقام زوجي لانه سيجدك اينما تسترت منه

فقهقه اللص وقال — اعلمي ايتها الحسناء انه لنْ يراك بعد ولا يرغب في ان يراك لانك صرت عروس اللص ولا يفرقنا الا الموت فاحجمت الغادة الى الوراء وقد زاد اصفرار لونها وتقطيب حاجبيها لكنها ظهرت عليها علامة العزم الاكيد فقالت

— المنية ولا الدنية وانك لتعلم ان الكونتة فاركاس لا تتردد في اختيار الموت على ثلم شرفها

فعاد اللص الى نفسه وذكر انهُ في حضرة ضباط مركبه وقال — خذوا هؤلاء الى الحرم واقيموا عليهم الخفارة الصارمة مانعين عنهم الحرية ثم التفت الى زليخة وقال — افتكري في الامر والجواب غدا

فأخذ الثلاثة من حضرته وهو يرغي ويزبد كدرًا فصار كأنهُ اللبوة الفاقدة اشبالها

وظلّ ادريان مدى هذا الاجتماع المؤثر ساكنا كالدمية من غير حراك ولا ظاهر انفعال حتى ذهبوا بالاسرى من الحضرة فتشاغل عن ابداء شيء من العاطفة المستترة بشرب الخمر واذا باللص قد نادى

— هاتوا خمرًا

ثم اشار بيده الى القوم فسكنت ضوضاؤهم فقال

— خذل الله البارجة ومن فيها واعطاني ظفرًا ونجاحاً بزواجي الغادة الحسناء الا وهي الكونتة فاركاس ثم التفت الى ادريان وقال

- لم لم تشرب كأساً على اسمي ايها الرئيس

— ان خمرك معتقة ثقيلة وقد شربت لهذا الحين كأساً كبيرة ولكن امر سعادتكم واجب الامتثال

فسكنت للحين اوهام اللص من صوب الرجل وقال له — انك شجاع حسن الخلال وليتك تكون منا على انا نترك الاشغال الى الغد

ودامت الوليمة اخذة في مجراها حتى كان ضيوف اللص يعجزون عن الشراب وينامون واحد بعد الاخر وكان ادريان على وشك مماثلة الاخرين لولا ان اللص الح عليه بان ينام على سرير في تلك القاعه فلم يرَ الاميرالا الطاعة لان المخالفة وخيمة القاعة ولذلك القى بنفسه على السرير ولبث صاحياً حتي سمع غطيط اللص فنام آمناً



الفصل التاسع عشر

(يالها من ليلة)

ولما مرّ نصف الليل وسكنت الحركة ولم يبق في داخل القلعة الا من نام وغطّ اما في ظاهرها فان الحرّاس كانوا يطوفون بها طوافاً خفيف الوطأة يدل على نعاسهم

وكان ادريان مدججاً بالسلاح من تحت اثوابه ورأى اليأس اخذاً مجراه فلحق به وتمسك بالاعمال الصادرة عنه فاصبح من القوة والبطش بحيث لايقف امامه الا الجسور

وكان قد راقب الباب الذي خرج الاسرى منه فمرّ فيه فرآه ينتهي الى دهليز في اخره حجرة مستنيرة بضوء ضئيل كان فيها احد الجبارة الاشداء نائماً على الارض من كثرة الخمر وان هو الا الخفير حارس الحجرة التي كانت السيدة زليخة فيها فجاءه ادريان خلسةً واخذ منه مفتاح الباب ففتحه ودخل فاقفل الباب وراءه ودخل من تلك الحجرة الى غيرها فرأى سليماً على سرير نائماً بلباسه العادي ورأى وراء هذه الحجرة قاعة فيها اثاث خشن الملمس وسريراً كبيراً عليه امرأته ورفيقتها فمس زليخة وايقظها وكادت تصيح ولكنه قال لها بصوتٍ منخفض

— صه والا فالموت اذا ادركونا

— يازوجي الحبيب وسيدي اين نحن وما هذا الذي ارى وكيف جئت الى هنا

— لاجدوى بالبيان الان وحسبك اني هنا وعلينا بالافتكار في

الهرب وتريني في حيرة مما جرى للوقوع في هذا الاسر

— لا اعلم ولكني اظن سليما قد خانني وسلمني لايدي القرصان

— اسليم الامين المجرَّب يفعل هذا

— ان هو الا ابنة تحبك وتبغضني لذلك

فاجفل ادريان لهذا القول واخذته الدهشة قائلاً

— سنبحث في ذلك

على ان السكوت عن التلميح الى فعلته ضروري اذ لابد لنا من نفع ببقاء سليم في خدمتنا

قال ذلك وخرج الى الحجرة الثانية فايقظ سليما ودعا به للمذاكرة في الامر فادهش الفتى لحضور مولاه والماعه من غير ان ينبس ببنت شفةٍ فلم تبد زليخة ما يوجس خيفة من الفتى ولكنها تظاهرت بظنها في امانته ثم قال ادريان

— يتعين علينا الخروج من القلعة حالاً وها كم تحت الشرفة القارب الذي جئنا به فمن اين دخلتم القلعة ياسليم

— من باب خلفي

فقبض ادريان على غدارته وصار يلعب فيها وصاح بالفتى قائلاً — هلاَّ تقدر ان تذهب بنا اليها

فانذهل سليم من حركة مولاه وقال — بلى اقدر

وذلك لانه كان قد امعن فيه نظره حين دخل

فقال فسر اذاً اما منا

فرأى ادريان ان امرأته توشك ان تقع مغمياً عليها من هول

الموقف فوضع يده حول خصرها وسندها ثم ساروا ففتح سليم الباب وخرج بهم الى حيث راءوا الخفير باقياً على حاله من النوم العميق وما زالوا يسيرون حتى اتوا شرفة ذات سلمين احداهما تذهب صعداً والاخرى نازلاً الى خارج البناء فنزلوا في هذه السلم حتى انتهوا الى باب صغير سمعوا من ورائه قوماً يتحدثون فاصغوا اليهم وعرفوا انهم نحو من اثني عشر خفير مدججين بالسلاح فاجفل ادريان من كثرتهم وتجمعهم ثم قال — علينا بان نجد لنا طريقاً غير هذا والا لو كنتم رجالاً واستم من الجنس اللطيف لاوجبت عليكم اجهاد النفس في نيل الحرية

فقال سليم — على اني مستعد للقتال

— الا ان تعريض النساء اللطيفات المزاج لمثل هذا الخطر يعد ضربا من الجنون ثم كر راجعا فلحق القوم به فقال لامرأته — عودي يازليخة الى حجرتك ساكنة لان المساعدة المنتظرة غير بعيدة عنا ونسأل الله السلامة حتى وصولها

فلم ينطق احدٌ منهم بكلمة حتى رجعوا الى حجرة الغادة فمال ادريان اليها وهمس في اذنها كلاماً اما سليم فكان يرقبها بعينٍ نقادة على ان في صدره من المرأة حزازات لا يماثل شدتها الا اخلاصه لمولاه وشدة تعلقه به واذ رآها يتكلمان تقدَّم منها طمعاً في ماله من دالة الولاء وحسن ظنه بوثوقها من صداقته وقال لسيدهِ

— كل دقيقةٍ تمر عليك في هذا المكان تزيد مقامك خطرًا فعليك بالفرار

فنظر ادريان الى ما وراء شرفة القاعة فرآها تعلو عن الصخور القائمة

فوقها علوًّا يبلغ العشرين قدمًا

— نستطيع كلنا ان نفرَّ من هنا اذا فزنا بالحبال اللازمة ثم نظروا فرأوا في القاعة كثيرًا من الحبال المعلقة والمدلاة من السقف فامر الامير بها فقطعت ووصلت حبلاً متينا خشن اللمس وربطت في حجار الشرفة والقيت منها الى الارض

فقال سليم لمولاه — انزل ياسيدي بها اولاً فان حملتك تحملنا اجمعين

— لا بل انزل انت اولاً كي تحسن استخدام الحبل عند نزول مولاتك فاطاع الفتى اضطرارًا ووصل الى الصخور سليمًا وما عتم ان لحقت زليخة به ووراءها المرأة رفيقتها وفي اخر الكل لحق ادريان بهم سالمًا معافىً فمشى امام جماعته الى صوب البحر غير ان الليل كان حالك الظلام لايقوى المرء فيه على المسير سريعاً سيما فوق الحطام والصخور الشاهقة ومع ذلك فانهم توفقوا لايجاد القارب الذي جاء ادريان وجماعته به غير ان الماء كان جزرًا والشاطيء بعيدًا عنه بالقارب فلا يستطاع انزاله الى الماء الا اذا جاء كل الرجال واولئك كان قد صدر لهم الامران يتفرقوا في الجزيرة اذا طال على مولاهم البعد عنهم فاصبح الموقف بهم محفوفاً بالمكاره ومع ذلك فقد خطر للربان ان لابد من انهم يجدون قارباً صغيرًا فيتخذونه للسفر فبذل الجهد ولم يظفر بما اراد فخبطت امانيه وتولاه اليأس سيما اذ رأى زوجته قد خارت قواها واخذها التعب والكلال وصارت ترتعد جزعا كلما هبَّ النسيم كأنها تتوقع الموت الذؤام وانعم النظر في حالها فلم يجد منها اقتدارًا على السير برًّا الى الجهة الاخرى من الجزيرة فاسقط في يده ولم يرَ له منجاة الا اذا توفق

لموضع يستره عن العيون وكانت القريه ساكنة هادئة لان اهليها عدلوا الى الراحة بعد الجهد في عمل النهار فخمدت انفاسهم او كادت ولم يبق من اثار حياتهم ولا الضوء لينير ظلام الوجنة

فتبدّى لهم عندئذٍ امل النجاة حابطاً سيما اذ علموا انهم اذا لحق بهم قتلوا شر قتلة ومع ذلك فكانوا يسيرون متجهين نحو نجم راه ادريان فاتخذه واجهة لسيره فما مضت عليهم نصف ساعةٍ حتى بلغوا غابة محتبكة الاشجار غضيضة لاغصان قئمة على مقربة من صخور شاهقة فتبينوها واذا هي اشجار زيتون نضرة فعقد لامير العزيمة على الاستراحة هنالك حتى يأتي الله بالفرج فاتخذوا الارض مهادا والحجر وسادا والسماء دثارا وناموا الى بعد الفجر فنظروا ذات اليمين وذات الشمال ولم يجدوا اثرا لمن يفتش عنهم او يقتص اثارهم فشرع ادريان يفتش بين هاتيك الصخور فرأى بينها كثيرا من المغائر لمتفذة قفير النحل تشكلا فنوى ان يتخذ بعضها ملجأً لان البحث عنهم بعيدا عن القرية يكون اكثر منه في جواره ولكنه اخطأ في ذلك اذ لم تمضِ عليهم لساعة حتى ظهر لهم جماعة من القرصان يقودهم كوزمو بنفسه فبلغوا لطريق لمؤدي الى لغار الذي اختبأ فيه الهاربون وكان ذلك لطريق عقبة كؤود يستطاع التعزز فيها لو كان حماتهم كثر وسلاحهم كافيا

وما عتم ان شرع لقرصان يصعدون في تلك الحطام وبينهم كوزمو وما زالوا حتى صاروا على قيد بضع اذرع من مخبأ القرين

وكانت زليخة وجاريتها ساجدتين تصليان في احدى زوايا الغار وسليم وتمنا كدا خوثه في باب ودرين يمهب غيرته من غير

رشدٍ وكان الى جانب سليم حجر كبير فدحرجه برجله من موقفه فذهب منحدرا من فوق الاكمة فاجفل القرصان له ومالوا الى جانبٍ ولم يبق ثابتاً تلقاء مثل هذا السلاح الى زعيمهم الباسل فانه للحال صوّب غدارته نحو الفتى واذا بادريان يصيح بهِ قائلا

- ويك اذا مسست هذا بسوء فانك تموت لامحالة

— اصرتَ بين مضادي ياجناب الرئيس المحترم فانا نحسن مجاملة اصحابنا كما نسيء معاملة اعدائنا فسلِّ ولاجاءك الموت ذريعاً

- ويك ياكرزمو الا تعلم ان الكونت ادريان فاركاس لا يسلم طائعا

- ويحك ما اسعد هذه اللقيا

ولم يمهل ادريان ليفكر في موقفه منه بل صوّب الغدارة نحوه واطلقها وما انجلى الدخان الا وبان ادريان واقفاً غيرذي بال بين كان سليم واقعاً بين قدميه مضرّجاً بالدماء ذلك ان الفتى اسرع ووقف بين الطلق ومولاه تخليصاً له من الموت الزؤام

فصوّب ادريان غدارته نحو اللص اللئيم بيدٍ ترتجف ياساً وكدرا وقال

— ويك ايها النذل الجبان اللئيم

واذا بصوت طرق اذني اللص فانحدر من الاكمة سريعاً كالبرق الخاطف اذ سمع من ينادي قائلا - البارجة البارجة

ثم سمعت اصوات بنادقها تنادي القرصان بالويل والثبور فاسرعوا الكرة هاربين

ومع ان الموقف كان هائلا دنا ادريان من سليم متفحصا جراحه نقل الجريح

— عبثاً تحاولون شيئاً فان الموت نصب عيني فالتمس منك ايها الكونت ان تعفو عن خطإي لاني خنتك وهذا جزائي

— اي بنيتي العزيزة ان ذلك كان عن حمقٍ وجهل ثم حاول بملء قدرته ان يسد الدم المتدفق من جراحها

— احببتك وابغضتها على انني مثلها او احسن لان الاميرة اليونانية اعلى من الاسيرة حسباً

وكانت ترتعد حتى اوشكت تموت من هزتها وعلمت زليخة وجاريتها بما كان فاسرعتا لنجدة الفتاة ولكنها ردتها باشارتها وقالت

— دعيني اموت بين ذراعيه بملء السلام لانني لم احب سواه فجئت في طريقي ولعل ذلك خيرًا على اني انقذته من الموت وفديته بذاتي

— ولكن لم لاتسمحين لي بمساعدتك كأنك لا تعرفين ان جرحك خطر وربما كنا قادرين على نجاتك من مخالب المنية

— الموت ويا الموت. ولم يمضِ الا بضع دقائق حتى اسلمت الروح او كان ذلك ماظنه كل من حضر

فعند ذلك التفت ادريان الى امرأته وقال

— اي حبيبتي لم يبق لنا من منفعة لهذه البنية فهلمي بنا نبارح الموضع تاركين هذه المسكنيه شاربة كأس خيانتها — اسمعي اسمعي لغط مدافعنا وبنادقنا وعما قليل يصبح اللص بين ايدينا ثم سار ذواها البارجة في مرساها والقرصان يسعون في الوصول الى مركبهم والبارجة عاملة على سد ابواب النجات في وجوههم واذ رأى ادريان الامر كذلك قال

— لابدّ لي من الذهاب الى البارجة لانه يوجد بعد غيابي وغياب روبرت من يحسن قيادتها فهل لك ان تختبئي باحدى هذه المغائر فارتاعت زليخة لهذا القول واجابت — بل خذني معك لان ساحة القتال بهولها لا تضارع مصائب الوحدة

— الحقي بي لنرى ماذا يكون

وما عتم ادريان حتى رأى القرصان الذين كانوا على البرقد بلغوا سفينتهم سالمين ونشروا قلوعها ورفعوا مرساتها عازمين على الفرار لان سفينتهم لم تكن من مثل تلك التي اغرقها ادريان ولا كانت بحارتها كاولئك

فاسرع الخطى نحو الشاطيء وسرّ بما لامزيد عليه اذ رأى معظم بحارة قاربه يتوقعون عودته على ان اثنين منهم ساروا بزورق صغير الى البارجة و بلغاها الخبر فوقع من القوم موقعاً جليلا سيما لاختفاء السيدة ومن معها وكلهم غير حاسبين لخيانة المسمى سليم حساباً ولا ظنوه متصلاً بالقرصان المستترين في الجزيرة بحيث حماته الغيرة من زليخة على تسليمها الى ايديهم الاثيمة

ثم شرع القرصان يجهدون النفس في الخروج من الميناء ولذلك تيسر لادريان وجماعته ان ينزلوا قاربهم الى البحر من غير معارضة على انهم لما صاروا الى الماء راوا اهل القرية هاجمين عليهم ليمنعوهم فرأت البارجة ذلك وعرفت القارب من شكله وكادت تبادر الى المعونة ولولم ترَ القارب قد تخلص من الخطر وصار اليها فما وطيء ظهر البارجة حتى نشر شراعها ومخر البحر في اثر القرصان فتعقبهم وصار منهم بحيث رأوا انه

يعتذر عليهم الفرار والتخلص من مطاردة البارجة فعدل عن الهرب الى قصد الساحل فمالت البارجة اليه وكانت تزداد منه قرباً حتى كأن امر القرصان صار مقضياً

وبعد قليل وصلت سفينة القرصان الى المرسى وشرعت تتأهب للقتال حتى فجرت على البارجة نيرانها واطلقت مدافعها وبنادقها وسائر ما كان معروفاً يومئذٍ من السلاح غير ان هاتيك النيران لم تكن كافية لصد البارجة بليروفون عن التقدم نحو العدو بل كانت سائرة عليه كالمعقل الحصين لايهوله وقع السهام حتى صارت على بضع عشرة اذرع منه والقرصان يرمونهم بنارهم ويزدادون حمية وبسالة كلما زادت البارجة قرباً لان بأس المستميت بالغ من الشجاعة حد التهور

بين ان هذه البسالة وتلك الشجاعة لم تستمر الى النهاية لان اولئك القرصان لما أنسوا اقتراب البارجة منهم توقفوا عن اطلاق النار فجاءة وفروا هاربين صوب البر ولم يكن الا على قيد بعض اذرع منهم حتى اذا بلغوه قصدوا القلعة المتهدمة تاركين سفينتهم غنيمة للظافرين فلحق الامير ادريان بهم بمن اجتمع اليه من رجاله ونزل البر وزحف في اثر العدى ورماهم بما لا يطاق من حرب عسكره المدرَّب حتى صارت المحاربة ملاحمة وحتى ظهرت البسالة من الفريقين هؤلاء يذودون عن انفسهم بحمية المؤيس القانط من الحياة واولئك يحملون عليهم ببسالة من يثأر لنفسه ووطنه ويستميت في احراز مفاخر الظفر وما زال هذا شأنهم وهم يظفرون بالكسب ويدحرون الاشقياء من موقف الى آخر حتى ظهر الغلب للبادقة فأسر من القرصان كثيرون وقتل عديدون ولكن فرَّ

منهم كل شقيٍّ اثيم لان معظمهم يعرفون مداخل القلعة ومخارجها فلا يعسر عليهم الانتفاع بما هنالك وكان الامير ادريان قد رأى كوزمو مرارًا في اثناء القتال فلما نال قومه الغلبة نادى به ان يبرز لهُ ليكون للظافر منها الفوز بذلك اليوم فلم يكن من مجيب

بل كان ذلك اللص الجريء يحارب في وسط رجاله المحيطين به من كل جانب متهالكا في التماس الظفر غير انه لما رآه عسير المنال شرع يقاتل وهو متقهقر كل ذلك والامير ادريان يحاول جهده ان يبلغ اليه ليناجزه وهو لاينال منه اربًا حتى وصل بمن معهُ الى دهليز مظلم فدخلوه واتصلوا منه الى بعض الاقبية المجهولة فهتفوا سرورًا بنجاتهم لكن ادريان امر باستحضار الاضواء وما استضاؤا بها الا والاشقياء قد برحوها امنين فانتهبت بذلك مقارعتهم

فدس الامير العيون والارصاد وبث الاعوان في كل انحاء الجزيرة بحثًا عن اللئام فما وجد لهم اثرًا ولا وقع على رجلٍ واحدٍ يجعله بين اسراهُ

واغرب من هذا وانكى ان سكان الجزيرة كلهم اختفوا فيها ولم يبق ظاهرا الا العجائز والصغار فسعى القوم في حل هذا الاشكال وادراك كنه ذلك الاختفاء فما عرفوا خبرا فاقتصروا على طلب جثة الفتاة التي كانت مختفية تحت اسم سليم فما وجدوا لها اثرا فبحثوا ولكن عن غير طائل فاحتار ادريان بذلك لاستغرابه ان يوجد بين القوم من يهمه امرها حتى تدفن ولم يخطر في البال غير ذلك

وقصارى القول ان ادريان لما لم يجد للقرصان وتباعهم اثرا عقد

العزم على العدول عن التفتيش عليهم فعاد الى البارجة وسافر بها وبالمركب المأسور قاصداً فينيسيا فلما بلغها ابتهج الناس به وبظفره وصاروا يقصدون المركب الذي غنموه ليروا شكله الغريب

ولمّا عاد الامير الى الوطن شرع يسأل عن صديقه روبرت ستانلي بلهفة المحب وبلبال الصديق فلم يعثر له على خبر بل عاد الامير محتارا في امره كما احتار غيره من قبل

الفصل العشرون

(يد الميت)

عد بنا ايها القارىء اللبيب الى الفتى الانكليزي المسجون لنطلع على سر امره المصون قبل ان نتمّ الحديث عن الوقائع الاخرى وانما نروي لك من اخباره ما اخذه الباحثون في شأنه عن مياومة حوادثه التي ظهرت للوجود بعد زمن هذه الحوادث ببضع سنين قال انه يعسر عليّ بيان ما حدث لي بياناً دقيقاً واشد العسر في تمييز اليوم الواحد عن الاخر لان الايام متشابهة وغما تمرّ بي فتزيدني ضجراً وملالاً وكنت في بدء امري كلما ذكرت ماضي حياتي اجد ذاكرتي مضطربةً ولكن لدى التأمل وامعان النظر تنجلي الحوادث لديّ كأنها في مرآة صقيلة وهاك ما اذكره انه لما جاء بي الشرطة من لدن قضاتي الجائرين مررت على عدةٍ من السلالم صعوداً ونزولاً ثم اجتزت جسراً كان مغطىً ومسوَّراً وان هو الاّ الجسر التنهدات والغاية منه الصلة بين السجون والقصر فوق الترعة المسماة ريودي بالاتسو اي شارع القصر ثم تحدرت الى

دهليز كنت من قبل قد سرت في بعضه بصحبة الشجاع فانتهيت منه الى حضرة رجل لابس لباساً فاخراً غير ان على وجهه لثاما وكان امامه سجل كبير وكان هذا الرجل كاتب سر المجلس فقال للشرطيّ الذي ساقني اليه

— ضعه في السجن

فساقوني الى السجان حافظ الاغلال فسار من امامي ومشى و رائي رجلان فصعدوا بي درجات عدة واجتازوا دهاليز شتى حتى انتهوا بي الى قاعة مستطيلة كان في اخرها باب عالجوا قفله بمفتاح فدخلنا منه الى سجن قذرهائل المنظرطوله تسع اذرع في عرض ثلاثٍ ولا يستضيء الا من جليٍ في السقف فظننت ان هنالك محبسي وشرعت احدج فيه نظري مستعظمًا هوله واذا بالسجان قد فتح بابًا اخر طوله ثلاث اقدام ونصف وفيه ثقب سعته ثمانية قراريط فملت نظري اثناء اشتغال السجان بفتح هذا الباب الى اداةٍ من حديد قائمةٍ على خشبٍ متين فرأيتها على شكل حافر الفرس ثخنها نحو قيراط وفي كل من اطرافها شريط معدني مدلى منه والتفت السجان اليّ فرآني احدج الاداة بناظري فبسم وقال — اراك كأنك تود ان تعرف شأن هذه الاداة فلا بأس من الافصاح لك عنها لانك مقيم ههنا فاعلم انه اذا صدر امر اصحاب السعادة باعدام احد المحابيس يستحضر الرجل ويؤمر بالجلوس على مقعدٍ منخفض ويدار ظهره نحو الاداة ويدار راسه بحيث يستحكم على عنقه لف حبل من حرير فادير الاداة قليلا وينقضي الامر

فقلت انها لنعم الآلة على اني شعرت بداخلي بشيء من الرعدة لهول

الخبر فلم يزدلي كلاماً بل ادخلني محبسي من بابه الضيق اذ دبيت اليه على اربع فما صرت فيه حتى اغلق الباب واقفل فتبينت موضعي فاذا الظلام يغشاه لان النور لاينفذه لا من ثقب الباب الذي اشرت اليه فقامت قيامة افكاري و ضطربت حوسي واذا بالسجان يسالني من وراء الباب عن الطعام الذي اشتهيه للعشاء فاجبته لااعلم لاني لم اكن في حالة يسهل عليّ التفكر فيها فلما سمع ذلك تمتم بعض الشيء ومضى

ولماانقضت المنيهة الاولى بما احدثت الحالة من الانقباض والاستيحاش دبيت متلمسا الموضع باطرافه على ضيقه وسوء حاله فرايته يخلو من كل معدات الراحة فلا مقعد ولا فراش ولا شيء اخر الا وعاء الماء اما السقف فكان واطئاً بحيث يستطاع مسه باليد وكان في احدى الزوايا كهفٌ واسوء بختي لم يمضِ عليّ الا بضع دقائق حتى وجدت لي رفقاء في هذا المحبس لكنها من غير جنسي اذ هي من الجرذ كبار التي لما رأتني سرها ذلك وتراكضت بشرًا وطرباً ولكنني لم اكن لا قابلها بالمثل لما وقر في نفسي من كرهة هذا الحيوان والخوف من غدره اذ قد يمكن ان يتولاني المرض او يعضني الجوع فلا اقوى على دفع العدية ولذلك ربما تاكلني الجرزان وانا حيٌّ

ثم تقدمت من الباب الخارجي وركعت عنده وشرعت انظر من الثقب الى ظاهره فغرقت في بحر افكاري وما زلت حتى سمعت الساعة تدق الحادية والعشرين فعرفت اني قضيت في ذلك الموضع الماثل لا قل من ثمان ساعات فعدت عن الركوع الى الجلوس على الارض و بقيت كاني على غير رشدٍ حتى ضربت الساعة الرابعة والعشرين

ومع ذلك فلم يكن لي قبول للطعام وانما رغبت في مشاهدة غير واحدٍ من الناس التماساً لتغيير هذا السكون وبدأت ساعتئذٍ اشعر بالظماء ثم اشتد فيّ واحسبني جننت من الغضب واليأس اذ كنت تارةً اقرع صدري وطوراً اضرب الجدران واونةً اصلي لله تعالى واسأله النجاة واحياناً اسب والعن واقسم الايمان المغلظة متوعداً ظالميّ بالويل والثبور

ثم انتهى ذلك بي الى نوم عميق ربما كانت مدته ساعات طويلة واخره استيقظت حالاً اني في موضع غريب وقد سمعت الساعة تضرب وقت نصف الليل واذا بحادثة وقعت اوقفت شعر راسي وتراني حتى اليوم ادوّنها وانا اشعر بهولها ذلك اني كنت متكئاً على جانبي فوق البلاط من غير حصير يفصلني عنه فاذ رجعت الى اليقظة تدريجاً وعادت تعاسة احوالي مصورة لدى ناظري وحركت يميني فمست يدي شيئاً بارداً كالثلج وان هو الا يد انسان ميت

فجاشت نفسي فيّ وكنت قد سمعت بشأن الحكومة ومظالمها وبلوغها حد القوة ومنتهى الشقاء ولكنني لم يخطر لي انها تبلغ هذا الحد فكأنها قتلت غير واحد من التعساء الذين اوقعت بهم ومن ثم ارادت ان تتلطف بي وانا نائم على قتاد المصائب فزجت الى جانبي جثةً باردةً كان اولئك الظلمة ارادوا بي شرًا اما الجرذان التي سمعتها تلعب في السقف فوق رأسي وفي الحجرة القذرة ذات الآلة فاني ظننتها ستأكل رفيقي وتأكلني وتكون جوافها مقابر نرتاح فيها من الهموم

واذ كنت انقلب في هذه الافكار وانا ساكن الحراك وكالمسلوب

لا استطيع ان اقوى على مغالبة عواطفي واعصابي حاولت ان اجلس واذا بيساري قد تخلصت من مقامها تحت جسمي ومن صيرورتها ميتة باردة فعلمت ان افكاري حامت حول فظائع لم تكن الا اوهاماً وان الموضع يخلو من الجثة المحسوبة وانما خدرت يساري لمرور الساعات عليها وهي حاملة جسمي برمته فصارت باردة كالميتة

ثم تبينت حالتي واذا بي قد قضيت هنالك خمساً وار بعين ساعة جاءني السجان في منتهاها وسألني متهكما اذا كنت قد احرزت من الوقت ما هو كافٍ للتفكر في الطعام الذي اريده فاردت في بادئ الامر ان اجيبه متلهفاً بطلب الخبز والماء ولكن عاودتني عزة نفسي فقلت اني اطلب حساء الارز ولحماً مسلوقاً وشواءً وشيئاً من الثمار والخبز وزجاجة من الخمر ومن ثم نفحته قليلاً من المال فندهش الرجل وسألني اذا كنت ارغب في شيءٍ آخر فلما اجبت بالسلب سار وما عتمّ ان جاء ففتح الباب ووضع المطلوب امامي على الارض ثم سألني اذا كنت محتاجاً الى فراش ومائدة وكرسي فاجبته برغبتي الوقادة في ذلك اذا كان يباح لي الحصول على المطلوب قال بلى ثم دفع اليّ دواة وقرطاساً وقال — اكتب الى ذويك في طلب ما تريد

فكتبت طالباً فراشاً ودثاراً وشراشف واقمصة وجوارب وملابس خفيفة وقبعة وامشاطاً وخفاً وكراسي ومائدة ومرآة وبعض الكتب الانكليزية والفرنسوية التي كنت قد استحضرت شيئاً منها الى فينيسيا وكذلك ورقاً وحبراً واقلاماً

واذ لم يكن السجان من عارفي القراءة تلوت عليه قائمة مطالبي

فقال ان اضرب صفحاً عن المرآة والحبر والورق لانها لا يباح دخولها ثم اخذ الورقة ومضى ثم عاد بعد خمس ساعات ومعهُ خمسة رجال ينقلون المتاع وفيه ملعقة من عاج من دون سكين او شوكة لانه لا يباح ادخال المعدن الى السجن ولما سألته عن الكتب قال ان حضرة الكاتب الفاضل حظر دخولها وانما سمح بادخال بعض كتب دينية كتراجم القديسين وامثالها فاخذتها غاضباً وطرحتها على الارض فبسم الرجل ومضى ولم يرجع الا في اليوم الثاني حين اذ حان اوان طعامي مرةً واحدةً في النهار وهكذا مرَّت علينا عدة اسابيع ونحن على هذه الحال ومن ثم نشأَت فيَّ رغبة وقادة في معاشرة الناس لان المرءَ في بدء مصابه تشغله افكاره عن سواه حتى اذا مرَّت به الايام ولم يعد حمل ذلك المصاب ثقيلاً للاعتياد عليه اشتد بالانسان الشوق الى العشير والانيس وهكذا كنت اتمنى مرافقة ايٍّ كان من البشر ولو قاتولاً ومن الحيوان ولو كاسرًا

فمرضت من همي ومرَّت بي ثمان واربعون ساعة لم اذق في خلالها من الطعام الا الارز والماء ولم انهض من مجلسي على الكرسيِّ حيث كنت اقضي الليل متأَرقاً من الجرذان ولا صلة لي من العالم الا استماع دقات الساعة الكبرى المعروفة بسان مارك فانها قريبة اليَّ كأنها في ذات محبسي

وهنا لك عذابٌ آخر لا استطيع الاغضاء عن ذكره الا وهو تكاثر البراغيث والقمل

وما انتهى الشهر الاول الا وقد فرغ الحبيب فاخبرت السجان بامري

وفي اليوم الثاني اخبرني ان حضرة اصحاب السعادة قد قرروا ان اعطى في كل يوم مبلغاً من المال يعادل نحو عشرين غرشاً لبذلها في مطالبي بما فيه ثمن زجاجة الخمر

فرأيت من هذا التعيين ان مدة حبسي طويلة فشرعت ان افكر في ما اعمل هل ابقى ساكناً متكاسلاً راضياً بحالتي التعيسة مظلوماً مهضوم الحقوق او ماذا فان ذلك لايطاق ومنذ ساعتئذٍ عزمت على الهرب مستخفاً بالحواجز مهما بلغت

الفصل الحادي والعشرون

(الجوهري)

وقدم فينيسيا تاجرٌ جديد فشاع ذكرهُ بين الناس وتحدث الاقوام بامرهِ حتى صار ذلك مستفاضا بين الجميع انه جوالة عظيم سار الى اقصى الشرق وجاب بلاد الهند وجاء منها ببدائع وطرف

ومما قيل فيه انه على جانب عظيم من الغنى واليسار وانه يتجر بالماس وسائر ضروب الجواهر والحجار الكريمة وانواع الحرائر والاطالس وقد جاء من اعاظم تجار جنوا بكتب التوصية لكبار تجار فينيسيا فاشتهر بذلك امرهُ في ايام قليلة وصار العظماء يتحدثون بشأنه وان غناه الوافر لما يضمن له الدخول بين الامراء والاعيان بل يجعلهم يتهافتون على ارضاء خاطره وكان من امرهِ بعد دخوله البندقية انه استأجر حانوتاً وسيعاً في سوق التجار المسمى ريالتو كان يتجر فيه من قبل تاجر يهودي مشهور بالثروة يقال له يناسس ثم استاجر الجوهري المذكور لسكنه قصراً صغيراً

مهجوراً على احدى الترع واقام فيه منقطعاً عن المجتمع الاهلي ولكنه شرع ينفق المال ببذخ واسراف كأنه من اعاظم امراء المشرق

اما خدمه في القصر فكانوا من اشداء اليونان سكان الجزائر ومن غيرهم وفي الحانوت كان يخدمه رجلان احدهما يهوديٌّ كهل والاخر فتى اسمر اللون قصير القامة جميل الخلقة

وشاع بين الناس وذاع ان هذا التاجر العظيم يعيش على الطرز الشرقي البحت فلا بدَّ له من حرم يصون فيه احدى الحسان عن كل نظر غريب

وكان الظن بمنشاءه الشرقي البحت او الممزوج وقاءً له من تلاعب الافكار بشانه سيما وان المقام في مثل تلك البلاد تحت حكومةٍ جائرةٍ لما يقف بالتأملات عن مداها و بالبحث عن الشؤون عند حد ابتدائها والمرء فيها ممتع بتمام حريته في اعماله الخفية مالم يكن من المتداخلين في السياسة فيلقى الامرَّين ولكم نتج لاولئك الاقوام من ضرر رجع عائده على الاهلين وكان مصدره اهمال الشؤون الخفية والاغضاء عن كشف مكنونات المجهولين فالحكمة كانت يومئذٍ في تجنب الخوض في السياسة والامتناع عن المدح والقدح على سواء اذ ان في الامرين تجاوزا الى الجناية

وكان التاجر الجوهريّ المحكي عنه قد تسمى بابن بطوطة واتخذ الى السداد سبيل الصمت عن الكلام لايمدح ولا يقدح فامن بذلك مغبة المنقبين عن امره

واتجر بين الناس بالحكمة والتؤدة لا يسوم خسفاً ولا يعمل في البيع

والشراء للكسب الفاحش بل معتدلا ماشاءت المصلحة كأنه يتجر استمرارا على العادة لا افتقارا للتجارة

فوقع من هذا الاعتدال شيء من الظنون بين الناس وشرعوا يبدون الملاحظات عليها خفافاً ولكن من غير تثبت الى حين

على ان جوهرياً آخر يسمى ابن ليفي كان اقل ثروة من الاول واكثر رغبة في الكسب فاشاع عن ابن بطوطة اخبارا فظيعة بل أعلن عنه وعن قبائحه بواسطة فم الاسد فحققت الحكومة عن التهم وبالطبع لم يظهر لديها شيء. اما ابن ليفي فلم يشك من مناظره جهارا ولم يبد مايدل على التناظر بينهما ومع ذلك فقد اخذ باسباب الحذر وسعى بنفسه في التعرف بالغريب فلم يكن ابن بطوطة اقل من مناظره ارتضاء بما اراد منه فتعارفا وتجالسا وتحدثا مرارًا جمة في حانوته وكان يظهر لمناظره ابن ليفي ماعنده من الجوهر واللاليء وسائر ضروب الحجارة والمتاع الفاخر تفاخرًا به وتعظمًا

وحدث في احد الايام ان ابن ليفي جاء صاحبه عند الاصيل وقد اوشك ان يقفل الحنوت وسأله ان يريه بعض الخواتم البديعة ليشتري منها فدفع ابن بطوطة اليه عديدا وسأله ان يختار منها ماشاء فرأى ابن ليفي اليهودي بينها خاتمًا ادهشه مرآه واعجبه فسأل التاجر عن ثمنه فاخذه ابن بطوطة بيده ورآه من جوهر قديم الصنعة فاظلم وجهه وظهر عليه الكدر والامتعاض واعتذر عن بيعه بانه لايباع ولا يشرى

— ولكنك ياجار دفعت به وبرفاقه لي لاختار ما اريد منها وقد اخترته فلم تاباه عليَّ مخالفاً كلامك

— بل اذا شئت فابيعه منك بمئة دينار

فنقده اليهودي المال واسرع الكرّة خروجاً من الحانوت

فالتفت ابن بطوطة لاصغر الكاتبين وقال — اسرع وراءهُ و راقب اعماله وماذا يريد من الخاتم ومتى عرفت شيئاً فافدني

فلم يجب الكاتب شيئا من الكلام ولكنه اشار بالطاعة وسار الى حانوت اليهودي وكان على قيد اذرع من حانوت مولاه وليس بينهما الاحانوتان فقط فلما صار الكاتب الى تجاه الموضع كان اليهودي قد دخل وخرج وفي يده شيء ثم هرول مسرعا فلحق الفتى بهِ حتى انتهى الى السلم الاكبر فصعد فيه بخطوات خفيفة وتجاوز ملاحظة الخفير عن قصدٍ حتى وصل الى ثقبٍ في الجوار كان معدّا لاقتبال الشكاوى التي تقدم من غير امضاء تحت عنوان فم الاسد فوضع هنالك شيئا لم يكن الجاسوس على بينةٍ من امره حتى اذا انتهى رجع الرجل على توه الى حانوته وعاد الكاتب الى مولاه فقرّر له ما كان فاصدر الجوهري له الامر اللازم وخرج من الحانوت لزيارة ابن ليفي

وكان الظلام قد ارخى سدوله والسابلة قلت من الشوارع او كادت فدخل ابن بطوطة حانوت صاحبه باسماً وجلس على متكاء وقال — لقد كنت افكر بك وذلك انك من الذين يظهر لي ارتياحهم لمشترى الجواهر القديمة وانا ارغب في من يشتري مثل تلك الذخائر فاذا شئت ان توافقني فانا نتجر بها على شريطة ان تكون مقتدرًا على بيعها في بلاد بعيدة لا يتخذ فيها مجالاً لمعرفة ذويها

— اني اقتدر على ذلك اذا مست الحاجة

– ان الحاجة ماسة لان عندي بعض قطع فاخرة غنمها رجال لايعترفون بغير قوتهم وازعاً ولا بسوى سيوفهم شارعا وقد باعنيها احد ابناء امتك المسمى ابن اريم في جنوا وحذرني الا ابهر بها عيون كبراء فينيسيا

فبرقت اسرة اليهودي وقال متلهفاً اهي معك

– بل هي في بيتي الحقير فهل تحب ان تراها

فنظر ابن ليفي الى ساعةٍ قديمة كانت هنالك وقال – لم يمضِ حتى الآن الا ساعتين من الليل واني ساوافيك لعلنا نعقد بيعاً ولكن هل عندك علامة من ابن اريم

– عندي في خزانة مجوهراتي في البيت

فللحال نهض اليهودي والتف بردائه واخذ عصاه ولبس قبعته واغلق النوافذ والشبابيك والقى وراءها حديداً رزيناً واغلق الباب واخذ المفتاح ثم سار الرجلان حتى انتهيا الى الترعة فوجدا زورقاً ينتظرهما فلما اقتربا من البحر سعى الزورق في الاقتراب بملء التؤدة والهدو وفيه رجلان صامتان لايبسان بكلمة فركب التاجران فيه وسار مسافةً قصيرة لان البيت كان على احدى الترع السفلى وبما ان الموقع على البر صغير المسافة كان البيت متقدماً على البحر فنزل الرجلان على درجٍ ضيقة يتكسر عليها الموج وصعدا الى الباب فدخلا القصر وسارا الى حجرة صغيرة ذات رياشٍ فاخر فلما صارا فيها اشار ابن بطوطة لرفيقه بالجلوس وما عتم ان نادى بالخدم فجاء الكاتب الصغير بالقهوة والشراب المحلى في كؤوس من الزجاج الفاخر

وكان ابن ليفي عارفاً بالقهوة وهي يومئذٍ لاول عهد دخولها في اوروبا المتمدنة الا انكلترا فانها لم تكن قد عرفتها فلما اخذ التاجر كاسها المعطرة بدأ يتجرعها على النسق الشرقي ويطنب بجودتها متلذذاً بطيبها غير مازج كأسها بالحليب لئلا تضيع نكهتها وانما حلاها بقليل من السكر واعقب ذلك بجرعةٍ حساها من اقوى الخمور حتى اذا انتهى من شرابه فرك يده ناظراً الى صاحبه متوقعاً منه الابتداء بالعمل

وكان المضيف ابن بطوطة رجلاً في الاربعين من عمره طويل القامة متين العضل غير ظاهر الملامح لاستتارها باللحية الكثة النامية في وجهه فلما رأى من اليهودي توقع العمل قال

– ويك ايها الرجل ماهي الشكوى التي وضعتها منذ مدة قصيرة في فم الاسد

– يا لله اجئتَ بي الى هنا لتسألني مثل هذه المسائل السخفية ونظر الجوهريّ اليه فرأى لونه قد امتقع خوفاً وان الرعدة قد تولته فكادت تذهب بحياته جزعا وانه ما اتم كلامه الا وقد نهض يريد الانصراف وبدت في تلك الهنيهة عظمة مقامه ظاهرةً على محياه ولباسه وكله ولكنها غير فاعلة في ابن بطوطه اذ صاح به

– ايها الشيخ لاتكتمني سر شكواك والا ساء مصيرك فاتجه الرجل نحو الباب وقال – دعني اذهب

فدفعه ابن بطوطه بشدة وحنق وصفق بيديه فظهر رجلان عليهما اشارة البربرة والقسوة وكلاهما من جزائر الغرب وكفتهما من سيدهما نظرة واحدة عرف اليهودي بعدها ان ساعته قد جاءت فانطرح على قدميه

يسأل الرحمة من الله تعالى ومن ثم مال على عدوه يقول — ويك يارجل الدماء وابن الجناية وصنوَ الاثام اني ادعو بك الى موافقتي في يوم الحساب ولا يحول بك الحول الا وانت موافقي لدى الديان العادل

فلم يتم مقالهُ حتى لف احد اولئك التباع الاشقياء حبلا من حرير حول رقبتهِ وشدّ عليها حتى اسلم المسكين روحهُ

فصاح عند ئذٍ ابن بطوطه قائلاً - اي رجالي الاشداء عافاكم الله عجلوا بربطِ الثقل في رجليه

ثم رفع عن ارض القاعة بساطاً نفيساً فبان من تحته باب يستر ثغرة فيها — وتسارع رجال الجوهريّ فقضوا لبانة سيدهم من تثقيل القتيل ولما انسوا من ظاهر الدار اشارة تدل على خلو الجوّ من عين الرقيب فتح الباب ورمي اليهودي منه الى ماء الترعة فانزله الثقل الى القاع ليكون ثمة طعاماً فاخرا للاسماك

ولما انتهى الامر اعيد الباب الى غلقهِ وبسط البساط فوقه كأن لم يكن ثمة شيء اذ عاد الجوهريّ يتلذذ بشرابه

ولكن ماعتم ان دخل القاعة اصغر الكاتبين منبئا ان زورقا من زوارق الحكومة جاء فوقف في الترعة عند احد ابواب القصر قال ذلك وخرج من باب سري فدخل من باب القاعة اربعة من المأمورين كلهم مدججين بالسلاح وواحدٌ منهم ملثم فلما صاروا في حضرة الجوهريّ لم يجدهم الا متأدبين في المعملة واذا بالملثم فهم يخاطبه — اظنك ايها التاجر المحترم تدعى بابن بطوطة

— صدق ظنك

— فاذاً اعلم ايها السيد ان مجلس العظماء يرغب في حضورك لديه للاستخبار منك عن شيء

فنهض الجوهريّ وقال — اراني ممتناً للحكومة كثيرًا ولذلك لايصعب عليّ استخدامي لديها بما تريد

ومن ثم سار بمعيَّة المأمورين من غير ان يصحبه احدٌ من الخدم فركب زورق الحكومة ومخر به العباب حتى انتهى الى الممر الضيق الفاصل بين قصر الدوج والبناء الفاخر القديم المتخذ سجنا للمذنبين وكان فوق تلك الترعة الجسر المنسوب للتنهدات وهو بين الموضعين المختلف مقامهما فمر الزورق تحت قنطرة ذلك الجسر ووقف هنيهةً عند باب ضخم جدًا واذا برداء رقبعة كبيرين قد طرحا ليستتر الجوهري بهما ففعل وسير به من غير ممانعة حتى وصل الى قاعة متسعة الارجاء الا انها واطئة السقف قليلة النور وفيها قضاة ملثمون فسألوه عن اسمه وبلده ومهنته وسبب مجيئه الى فينيسيا ثم اتصلوا من ذلك الى المسألة المهمة فقالوا

— هلاّ عرفت هذا الخاتم

فبذل التاجر جهد المستطيع في معرفة مخاطبه من صوته فلم ينل اربًا فاكتفى بان اخذ الخاتم بيده وقلبه حيناً ثم قال

— لاريب ياسيدي اني اعرفه لانه حجر اشتريته من جنوا وقد بعته منذ ساعتين للتاجر اليهودي ابن ليفي

— ولكن هلا عرفت الشارة التي فيه ولمن هو في اصله

— لم يفتح علي بمعرفة اسراره سيما لاني اشتريته مع غيره صفقة واحدة

والبائع ابن عمري يقال فيه انه لا يهتم بمعرفة منشإٍ بضائعه فعسى الاَّ يكون لهذا الخاتم مالك في فينيسيا

– انهُ يخص خزائن الدولة وهو رجلٌ اضرَّ ضررًا بليغًا بالامير الخطير المتولي زعامة حكومتنا

قال ذلك وأحنى الرأس اجلالاً لرجل جالس على مقربةٍ منهم وهو لابس رداء قرمزيًّا وعلى وجهه لثام عريض

فعرف الجوهريّ من ذلك انه في حضرة الدوج فقال بصوت المطرب

– ليت رجلي كسرت قبل ان اشتريت الخاتم

لا ضررَ على التاجر الذي يشتري ويبيع بنية سليمة ولكن اعلم ايها التاجر المحترم ان ابن ليفي يقول انه اذا قابلك لدينا يبرهن انك من اعداء الدولة

فاجفل التاجر الى الوراء ونظر الى القضاة نظرة الاندهاش والحيرة ثم قال – اي سادتي اذا كانت الرغبة في كسب المال الحلال من الامراء والسراة ونبيلات المثريات في فينيسيا بدلاً من مجوهرتي وحرائري ونفائس سلعي يعدّ ذنبًا فها انا مذنبٌ لديكم. ولا فلا ما لم يكن لمناظري في تجارتي شكوى اخرى

فصاح رئيس القضاة بالشرطة قائلاً — هاتوا اليهودي

فوقع عند الباب اضطراب عقبه دخول احد المأمورين مسرعًا قلقاً وقال

— فتشنا فلم نجد للرجل من اثر ورأينا حانوته مقفلاً كالعادة وما من رجلٍ رآه خارجاً منها او ذاهباً الى داره وبيانا امرأته وبناته

فاجبن انهن لم ينظرنه منذ الصباح ففتشنا كل مساكن الاسرائليين في المدينة ولم نجده

فائتمر القضاة فيما بينهم وتحدثوا همساً ثم امروا باخراج الجوهري فخرجوا به الى حجرةٍ ملاصقة ومن ثم خلا لهم الجو للبحث فتذاكروا وراَوا انه يعسر عليهم اتمام شيء من الاعمال حتي يجدوا اليهودي ولذلك امروا الشرطة بالتفتيش الدقيق حتى في دار الجوهري على ان الرجل كان متوقعاً مثل ذلك ولم تمضِ عليه الساعة حتى عادوا به الى حضرة القضاة فاخبروهُ انهُ يطاق سراحه بالنظر لغياب اليهوديّ الذى ظنوه قد ذهب الى البر قضاء لبعض الاشغال ولا بدّ ان يعود في الغد فلما سمع الجوهري ذلك قال — اي سادتي النبلاء اصحاب السيادة والسلطان انكم لتجدونني على الدوام مطيعاً لكم قائماً على خدمتكم لاني مستظل بحمايتكم

فاشار رئيس القضاة براْسه استحساناً لمقال الجوهري فاخلى سبيله

الفصل الثاني والعشرون

(الخدعة)

وكانت السيدة بيانكا بنت الدوج حزينة القلب منقبضة الصدر لاتجد لمصابها عزاء ولا لضيقها فرجا سيما وانها قضت ثلاثة اشهر من غير ان ترى حبيبها او تسمع عنه خبرًا لان امره كان خفياً حتى عن ابيها وناهيك به ارفع من ان يظهر بالنبلاء الظالمين انهم يجسرون على ايقاع اخصائه تحت طائلة غضبهم والاقتصاص منهم كأنهم من عامة الناس بل حسب ستانلي قد ندم على ماصار اليه من خطبة ابنته لما

يعترض سبيلها من العقاب ومناظرة امراء فينيسيا المقتدرين بحيث احب الفرار من البلية الى حيث يؤمن الغائلة

غير ان مثل هذا الظن لم يخطر على بال بيانكا لانها تابعت بنات حواء في تبرئة عشاقهن من وصمة الاخلاف اذ حدثها قلبها الولهان ببقاء حبيبها على ولائهِ وانما اقصاه عنها احد امرين اما غيرة غير واحدٍ من الامراء العظام او احدى داعيات السياسة الجائرة في وطنها

الا انها اعتقدت لاول اختفاء امره انه سار في بعثة الكونت ادريان وما زال ذلك ظنها حتى عاد الكونت مكتفياً بظاهر الظفر فعلمت ان حبيبها لم يكن في جملة تباعه

ولم تكن اوبة ادريان هذه المرة نائلةً تمام الرضى ولذلك لم يحتفل القوم بدخوله لبلدة حاسبين الظفر معلقاً باقتناص الدوغي الاعظم والمجيء به مكبلاً بالحديد ليطاف به في المدينة ضمن قفص يجعله عبرةً للناس وذكرى

واكتفى الامير ادريان من الاحتفاء بعودته انهُ آب سليماً معافىً منشرح الصدر بصحبة عروسه التي كان يزداد بقربها والاستئناس بها سرورا وحبورًا بحيث لم يكن ينغص عيشه الا غيب روبرت ستالي صديقه الحميم

وما وطئت اقدامه ارض المدينة وشهر امر وصوله حتى اسرعت الاميرة بيانكا الى زيارته وهي صحبتها جاريتها فرآها ادريان وقد تبدل ورد وجنتيها بالبهار وكاد الكدر يسلبها حلية الجمال ولا بقية حسن يخلب النفوس ويسبي الالباب على انها لما وقفت ازاء زليخة وهي في

ابان مسراتها واوان حبورها وقد برقت اسرتها طرباً واستقرّت على ملامحها شارة الافراح فزادتها جمالاً بدت بيانكا كأنها احط من مرتبتها حسناً

ولكن ذلك لم يمنع الغادتين من عقد خناصرهما على الحب والولاء حتى انهما منذ ساعتئذٍ اصبحتا كالشقيقتين ائتلافاً اما حديثهما فكان مداره ستانلي الغائب · الذي وعدهما الاميرادريان ببذل الجهدِ في استقراء امره بما لديه من الطرائق السرّية

ولما تذاكر الدوج والامير عن مصير الانكليزي باح الدوج بما استقرَّ في خاطره من ندم ستانلي وفراره من مناظرة العظماء فلم يكن هذا الظن بما يخال لادريان لما علم من غرام الفتى ببيانكا ومن ثبات جأشه وعدم تهيبه فاكبر نفسه عن الفعلة ثم فكر في الامر فرأى حالة البلاد متجسمة لدى مخيلته وحام بتصوره حول الحقيقة اذ انه قال في نفسه الا ان مناظره في هوى الاميرة ليس الا انكونت فالاس والرجل معروف المكانة في الدسائس

ومرّت على بال ادريان خواطر جمة وبينها اسم بوناتي شجاع فينيسيا ومن عادته الا يخلو له وطاب من اختفاء بعض الناس حتى ان القوم كانوا ينسبون اليه معظم الميتات السرية

وبعد ليال من رجوع ادريان بالسلامة الى العاصمة تردى برداء الخفية وتلثم وسار في جهة القديس مرقص في حينٍ متأخر من الوقت بحيث لا تزدحم فيه اقدام السابلة فيسهل عليه ايجاد من يريد اذ كان من عادة بوناتي ايام الفراغ من العمل ان يتخطر في الشوارع او ان

يتكئ على عضائد البرج كمن هو تائه في بيداء الافكار على انه ليس الا سامع لاحاديث السابقة

وما عتم ان رآه الامير يتمشى على سابق حاله ورابط جأشه وثبوت اقدمه متقنعاً بلثام مزدوج من المخمل فدنا الكونت منه ومسه برشاقة في كتفه قائلاً — لي معك كلام

فنظر المخاطب الى المتكلم باندهاش حتى امعن فيه نظره فاشار اليه ان يلحق به على انه لم يفه بكلمة فلحق الامير به ولم ينطق الاثنان ببنت شفة حتى صارا في مكان لا يسمعهما فيه احد فوقفا وقال الكونت

— انت الذي يدعوه الناس بوناتي الشجاع

— انا لا اسمح لبشر ان يسألني مثل هذا السؤال حتى اعرف من هو فاجابه الامير بان رفع لثامه عن وجهه من احدى جوانبه لحظة من الزمان حتى تبين لرفيقه محياه وعرفه فرفع قبعة عن رأسه احتراماً وقال — الكونت ادريان يا لله اية خدمة تامرني بقضائها فاني لا اعصى لك امرًا الا في اشياء معدودة على اني اخاطر بحياتي في سبيلك

— علم يا بوناتي ان الناس يتحدثون ان كثيرين من الذين يختفون ولا يدفنون جهرا انما يقضى عليهم بعلمك ولست الطالب بالاعتراف لي ولكنني اسألك عن ضياع صديق حميم

- كأن سيدي الكونت يمتقد اني من الشجعان المعروفين الذين يبيعون فعال خناجرهم لمن يزيد في الحباء

- كذا قيل

فصاح الرجل بحرارة الشبيبة ومن عمق قلبه — اعلم يا كونت ادريان

اني يهمني ان اجعل لنفسي اعتبارًا في عينيك وانت نبيل ومن شأنك الثبات عند كلامك فهل تحفظ اسرار بوناتي المحتقر في عينك

- نعم

فدفع اليه بطاقة وقال له اقرأ هذه على ذبالك النور فقرأ ادريان ماياتي «ان بوناتي خادم امين لي وتابع وثيق فمن كان من اصدقائي يستطيع ان يستأمنه على حياته وشرفه التوقيع

الدوج

فاعاد الامير البطاقة وقال ولكن ما معنى هذه الاسرار

— اسأل الدوج عما تريد

— على انك عرفت ان صديقي ستانلي فقيدعنا منذ ثلاثة اشهر

— وسيادتكم تظنون بي شرًا وان لي يدًا في اخفائه على انك رعاك الله لا تعلم انهُ خاطب سرًّا لابنة الدوج بمصادقة ابيها

- انا اعرف ذلك

- وان الكونت فالاس مناظره في هوى الغادة ومذ رأى الانكليزي غائبا بدأ يلح باسترضاء العشيقة النافرة عنه وهي لا تزداد الا صدودًا

— اظن يتعين عليَّ ان اطالبه باظهار صديقي

— احذر على نفسك وتوقَّ مخاطبته على اني اظن صديقك نازلاً هنا لك (واشار الى موضع السجن فيما وراء جسر التنهدات). ومع ذلك فيا ايها الامير هل لك بي شيء من الثقة وهل تسمح لي بالدخول عليك متى شئت فان نلت ذلك منك ربما اقتدر على تبليغك شيئًا

فاخذ الامير خاتمًا من اصبعه وقال

— ان عندي في البيت خاتماً من مثل هذا الطابع فمتى جئت من الباب السري فأَرِ هذا تدخل عليَّ في اي وقت شئت

ثم حياه وانصرف فقال بوناتي في نفسه

انه فتى من النبلاء الاباسل ولكنه كسائر امثاله يحسبنا نحن عامة الشعب كأَننا ترابٌ تحت اقدامهم ولكن سيأْتي يوم قريب. واذا برجل ملثم قد دنا منه وهمس في اذنه قائلاً — ولايّ شيء فاجفل الشجاع واسقط بيده لانه اثناء تفكره تساهل حتى دنا الغريب منه دنوًّا لايخلو من الخطر فانعم في الرجل نظره وما عتم ان عرف انه من تجار المدينة بالرغم عن تقنعه باللثام فقال يجيبهُ — ان افكاري من خصائصي وحدي

— بل ان وقتك لمن ينقدك ثمنه قال ذلك واعطاه كيساً مملوءًا من الدنانير فاخذ بوناتي الكيس ووضعه في جيبه ثم انحنى لمكلمه احتراماً فقال الراشي

— الم يكن الذي حدثك منذ هنيهة هو الكونت ادريان فاركاس

— بلى هو بعينه

— ان الكيس الذي اعطيتك يحوى مئة درهم واني لازيدها تسعمائة ومتى تأَكدت ان جثة الكونت مطروحة تحت المكان المسمى ليدوباليسترينا

— ان ذلك صعب المنال لان الكونت غنيٌّ وافر الثروة شديد الحول محبوب من الناس فاذا مات لايهمل امرهُ بل يسعون الى البحث عنه والتدقيق فيه فاذا اردتَ ان انهض بالواجب عليَّ نحوك يتعين عليك ان تفسح لي وقتاً

ا– مهلك شهرًا

– وما الاسم الكريم

– ليس الامر ضروريًّا

– ليس في سوق التجارة من لا اعرفه فانت ابن بطوطة ومتى اردت ان اقبض الجائزة اعرف بيتك

وهما كذلك واذا بصراخ من صوب الماء فمالا اليه وما سارا الا بضع اذرع حتى رأيا بعض الصيادين يخرجون من شباكهم شيئًا ثقيلاً على انهم كانوا قد القوا الشباك في الترعة مخالفين السنة المشروعة فكانت نتيجة عملهم هذا الصيد وكان كثيرون من التجار قادمين من سوق ريالتو فتقدموا من مزدحم الناس كما تقدم ابن بطوطه ليروا في الامر ولما صاروا الى الحلقة نادى بوناتي قائلاً – ما هذا

فامال الصيادون شبكتهم صوب المزدحمين واخرجوا منها جثة رجل فدنا ابن بطوطة من الجثة وقلبها ثم قال هذا صديقي وجاري ابن ليفي كأنه سقط في الماء فمات

فاجاب احد الحاضرين مشيرًا الى عنقه واثر الحبل فيه وقال – بل قتل قتلاً فيا ايها الاصدقاء والجيران انظروا ان الامر يعود علينا جميعاً فيا للعدالة يا للعدالة

وكان المستغيث رجل من اغنياء التجار بين اليهود فاعقب كلامه اضطراب وهرج قليل ثم جاؤا باداة حملوا الغريق عليها الى باب حانوته حيث وضعوها ثم أُخبرت عائلة الرجل

ولم يمض ربع ساعة الا وقد جاءت جواسيس الشرطة الى الموضع

يلحق بها مأمور من ذوي المناصب السامية فاعلن الناس باطلاع النبلاء على الحادث وانهم عاقدون النية على البحث الدقيق واجراء العدالة والصرامة واذ لم يكن القتيل مسيحيا لم يدخلوه الكنيسة المجاورة بل القوه في حانوته الى الصباح وفي الوقت ذاته شرع رجال العدلية يهتمون بالبحث والتدقيق فتفرق الحشد ولم يبق في الحضرة الا اليهود

اما ابن بطوطه فمضى الى قصره واتجه الشجاع صوب قصر الكونت ادريان ولم يكن قد مضى عليهما غير ساعة منذ اجتماعهما الاخير حتى اذا عاد الكونت الى قصره اختلى في احدى قاعاته بامرأته وبالاميرة بيانكا ابنة الدوج

ولذلك اخذته الدهشة اذ دُعي من بينهما حتى اذا صار الشجاع لديه قال له — اي صديقي ابهذه السرعة نلت الارب

— بل جئتك يامولاي بهمة اخرى غير تلك واشار الى حسامه

- اجلس واوضح الامر

فاحكى الشجاع قصته حتى اذا انتهى منها قال ادريان الف درهم يدفعها لقتلي ماذا يقصد الرجل ولايّ شيء ان في الامر عجباً

- لا تعجب ياسيدي فليس لهذا الاشكال الا حلٌّ واحد لان هذا التاجر الغني ليس الا احد اتباع اللص الجرئ وذلك لايقر له قرار حتى يختطف امراتك البديعة الجمال

— ماذا تقول يابوناتي وبما اني عرفتك حق المعرفة فاني اسلم التدبير اليك فكن خادمي الامين في هذه لمهمة فتصبح لي في النهاية صديقاً

فاحنى الشجاع رأسه اكراما واخفة لما بد من المسرة والارتضاء على محياه

— ولكن يتعين عليك بداية ذي بدء ان تكشف لي امرك

فاحكى الشجاع حكايته من الاول الى الآخر وكيف انه سأل التاجر المهلة فاعطاه شهراً لاتمام مقصوده

ــ وفي اثناء المدة نقتدر على معرفته

ــ ومن الضرورة ياسيدي ان يكون اجتماعنا بعضنا مع بعض كغرباء واذا سمعت مني ايها الامير نجحت كثيراً

ــ وبأي شيء

ــ صادق الرجل وتجمل له متلطفاً ودع السيدة المصانة تذهب الى حانته وهي محاطة بالخدم والاتباع وان تشتري منه الجواهر فلا يداخله وهمٌ

ــ سيكون ماتريد وتراني اسعى لالقى الخديعة بمثلها وغداً تزوره السيدة زليخة

فانحنى الشجاع اجلالاً ووعد بالمراقبة ومضى

الفصل الثالث والعشرون

(عرين الاسد)

وفي اليوم التالي ورد النباء لابن بطوطة بان الكونتة فاركاس والاميرة بيانكا ابنة الدوج ستشرفان حانوته لتنظرا في جواهره وتاخذا منها مايروق لديها وانما تزوره الغادتان معاً لانهما صارتا الى صداقة لا انفصام لعراها وكانت بيانكا تبوح لزليخة بالشكوى من بعاد حبيبها وتلهب فؤادها بحبه حتى صارتا تقضيان الساعة والساعتين في حديثه

وكان من ظن العشيقة ان الفتى لم يزل حياً الا ان اختفاء اثره سرًا يعسر عليها كشفه وفي بادىء الامر حدثتها افكارها بوجوده مسجونًا لكن اباها نفى لها هذا الفكر غير عالمة ان الدوج اذا اطلع على سرٍ من اسرار الحكومة لا يستطيع ان يفشيه وهو آمن على سلامة رأسه

اما السيدتان فانهما لما خرجتا من القصر اتجهتا صوب سوق ريالتو معهد كبار التجار فمرّتا بسوق اربوريا الواقع عند الترعة الكبرى على مقربةٍ من السوق المقصود حيث كان البنادقة يبيعون ويشترون فيه انواع البقول والثمار والازهار ومنه سارتا الى الرياتو بمن يحف بهما من الخدم والاتباع قاصدتين حانوت التاجر فلما صارتا اليه نهض ابن بطوطة لاستقبالها بالعجلة والاعتبار وانحنى لهما احتراماً ووقارًا فدخلت الاميرتان الحانوت بجاريتين من تباعهما فقط وظلت بقية الحاشية في ظاهره ومن ثم جلست الجاريتان في الحانوت ودخل التاجر بالاميرتين الى حجرةٍ داخلية بالغة في الاتقان وفي وسطها مائدة فاخرة بسطت عليها الجواهر البديعة والاطالس وضروب الحرائر وعندها جارية قائمة للخدمة فسرّت السيدتان بذلك اتم السرور ونظرتا الى الجارية واذا بها على جانبٍ من الحسن والجمال الرائع اما لبسها وزيها فشرقيان تماماً واذ ابصرتها زليخة ادهشت لانها رأت هيئتها شبيهة بملامح الفتى سليم الذي عهدته من قبل قتيلاً اما الجارية فلما وقعت عيناها على الاميرتين انحنت لهما وقارًا وسالتها بلهجة اهل توسكانا عما تمران برؤياه بادىء الامر

فخاطبتها زليخة قائلةً — اما انت من جزائر اليونان

— بلى يامولاتي على اني اخر من عاش مٍن عائلتي اذ اختطفني احد القرصان الاشداء وصرت في قبضته باعني في قبرص من وليّ امري هذا وهو كريم العاطفة نحوي على ان اسمي صفية

ــ وهل لم يكن لك اخ فاني اعرف فتىً شبيها بك كثيرًا

ــ ان اهل ساقز يشبهون بعضهم بعضاً كثيرًا على اني لا اذكر ان لي اخاً .

وكأن الجارية قد ملت البحث في هذه الموضوع فشرعت تظهر ما لديها من التحف والنفائس ولا خفاء ان مثلها يستلفت الانظار وقلّ ان تقوى الحور الحسان على التمنع عن الميل الى فاخر المتاع ولذلك لّم يمض الا دقائق معدودة حتى مالت السيدتان الى هاتيك النفائس فاختارتا منها شيئا كثيرًا

وكان التاجر في مدى ذلك ينظر عن بعدٍ متجنباً الخوض مع الغادتين حتى في سوم البضائع المذكورة و بيعها

ولما قضت الاميرتان غرضهما قالت الجارية صفية انها اذا شاءت اميرة فاركاس تجيء الى قصرها بما تحب من التحف ايّان اختارت ثم اردفت قائلةً

— ان عند سيدي من المتاع الفاخر والتحف النفيسة ما يزيد عن هذه حسناً و بهاءً كالساعات النادرة المثال واشباهها وكلها في مصيفه في فوسينا

— فقالت زليخة — اين موقع فوسينا

اجابتها بيانكا — على البر وهي موضع بديع وان العدول عن ركب الزوارق الى ركب البغال والسير على اليابسة لما يحلو

فاجابت صفية — متى اردت سيادتك لزيارة تريني تحت امرك

— يومئذٍ نبعث اليك خبرًا

ثم سارت بن معها نحو الزورق ومنه اتجه الموكب الى قصر فاركاس

اما ابن بطوطة فاقفل باب حانوته والتفت الى الجارية وقال

— لقد احسنتِ ايتها الفتاة على انها اساءت بك الظن قليلاً فلا بدّ من ان ترحلي في مدى ساعةٍ فاذا اتت الى فوسينا دبرت عنك عذرًا ومن ثمّ فقد اتممت الاخذ بثاري قال ذلك وعلى وجهه شارة الانتقام

— كأنك ما زلت تهواها

— بل ابغضها والذي فصلها عني لا بدّ من ان يذوق مرارة بعدها وفوق ذلك فان لي اسبابًا اخرى لم ابح بها لبشر حتى ولا اليك فعجلي بتغيير ملابسك حتى ارى هذا الزئر

وكان الرجل لابساً ملابس فاخرة وقد دخل الحانوت حاملاً لابن بطوطة رسالةً فلما اخذه الرجل وفضها قرأها بامعان ثم اجاب حاملها

— سأسرع للمثول بين يدى سعادته

وعندئذٍ دخل الكاتب الفتى من الحجرة الداخلية الى الحانوت ولم يبق عليه اثر البنات

فقال الرجل يخاطبها — اي بنية ان في المسألة خطرًا فاذهبي وأمري رجال القارب ان يكونوا متأهبين لامتثال اشارتي لاني ربما ابارح البلدة في هذه الليلة اذ لا ارغب في المقام هنالك . مشيرا الى نسجون

فاطاعت الفتاة الامر من غير تردد واتجهت نحو القصر الذي كان التاجر يسكنه لتصدر الامر الى القوم الذين يظهرون بين الناس خدمًا

واتباعا وان هم في الحقيقة الا قرصان لئام ليكونوا على اهبة واستعداد لمبارحة البلدة اما ابن بطوطة فانه باشر المهمة في جمع جواهره ومثمنات اشيائه الى صندوق متين ومن ثم القاه في موضع لا يعرفه من قومه سواه واخذ كيسا مملوءًا ذهبا وخرج

وكان الليل قد ارخى سدوله والقمر اضاء فاستبشرت به بنايات البلدة وقصورها فكان المنظر بديعا والسكون ضاربا اطنابه لان القوم لم يكونوا قد خرجوا من مساكنهم زرافات اذ ان من عادتهم التربص حتى يصبح الهواء بليلا

وكأن ذيالك الهدو ما يشبه رهو البحر قبل النوء اذ لم يكن من يسمع الا اصوات المجاذيف وقرقعة القلوع من قوارب القاصدين منازلهم

وكان الرسول لم يزل واقفا خارج الحانوت ينتظر فراغ التاجر من عمله حتى اذا انتهى وخرج سار امامه الى زورق فيه بحار آخر من ذوي الشارات فجلس الجوهري في الموضع المعد له وسير به الى باب البحر السري المؤدي الى حضرة لكونت فالاس وهنالك نزل الى باب صغير حيث كان احد الحراس ينتظره فسار به في طرق معوجة الى قاعة كبرى كان يتخطر فيها الكونت فلاس وعلى وجهه قطوب بادية الظهور حتى اذا صار لديه قال الكونت

— اي صديقي ان لك في فينيسيا اعداء الداء وقد قدمت عليك الشكوى مرتين في مدى اربع وعشرين ساعة والآن منذ هنيهة شكوك بانك شريك بلاء فينيسيا

فوضع الجوهري كيس الدنانير امام الامير الخائن المرتشي المتظاهر



بالاغضاء عن ذلك وقال له —

- وهل لي ان استخبر عن الشاكي

- حقاً احسب ان يد الكونت فاركاس قد حاكت عليك هذه الشكوى

- ان ذلك الرجل لم يبرح عثرةً في طريقي فما قولك فيه

- لاقول لي بشانه واعلم انك لابد من القبض عليك في هذه الليلة ما لم تكن من حلفاء ابليس فاذا القي عليك القبض اودعناك المحبس فتبقى ثمة شهوراً ثم تعلم بما شكي عليك واعلم اني باباحة هذا السر اليك اخاطر بحياتي لان الدوج قد امضى بيده الامر باخذك

— اشكر لك صنيعك وساعمل بنصحك ولكنني لاانام حتى استرجع اسمي واعيد املاكي وانتقم لنفسي ممن اكره على ان الدوج لايحيا الى الابد

فبسم الكونت فالاس عن غير طيبة خاطرٍ وقال

- ان موته لايفيدك كثيرًا مالم اكن انا خلفه على المنصة العليا على ان اصحابي بين النبلاء كثار وقد فتحت المسألة من قبل

- ولي كل الامل ان احييك تحية الاجلال والزعامة عما قريب اما الآن فعليَّ ان اغتنم الفرصة ولا اضيع الوقت عبثاً

ثم انحنى متشكرًا وخرج بعد اذ استاجر زورقاً ومضى الى بيته



الفصل الرابع والعشرون

(الرشوى)

ولم يمضِ على هذه الحادثة اكثر من ساعةٍ حتى شوهد رجلٌ لابس ملابس الجوهري المعروفة وهو يتخطر عند الرصيف المسمى فوندمنتا نوفا وما كاد يصل الى زاوية المكان حتى ظهرت له الشرطة وعدتهم عشرون جباراً يتقدمهم واحد منهم فاحاطوا بالرجل احاطة السوار بالمعصم وقالوا له اخذناك اسيراً وكان على رأسه قبعة فلما انزاحت قليلاً تبين ان المقبوض عليه عبدٌ اسود فقال لهم - ماتريدون مني فان سيدي امرني ان البس هذا اللباس وابقى في حانوته متوقعاً رجوعه وان انا الا خادم فقير فلما رآه رئيس الشرطة ماسير كراند وسمع مقاله سبَّ وشتم وسأله عن موضع سيده فاجابه انه تركه في داره وللحال ترك العبد في خفارة اثنين من رجاله وسار بسائر العصابة مسرعا نحو بيت التاجر فقرع لباب واذا بعجوز فتحت لهم فارتعدت فرائصها اذ رأتهم كثاراً واذ علمت من الشارة التي تحلى بها انهم من الشرطة فصاح ماسير كراند بها قائلاً

- ويك اين سيدك

- ليس في الدار سواي

فللحال بدأوا بتفتيش لدار فوجدوها خاليةً خاويةً لاسمير فيها ولا انيس وعلموا ان التاجر ذهب على زورق سريع الى فوسينا منذ نصف ساعة مستصحبا معه كل خدمه

فاضطرب المأمور واسقط في يده مرتعاً من خيبة مسعاه خائفا من طائلة القصاص لان موقفه من الامر لم يكن ليقيه بادرة الغضب فاسرع الى قصر الدوج ليعالنه بقصوره عن نجاح عمله اذ يقف منتظرًا القصاص جزاء فشله

غير ان الدوج شعر ان بعض ذوي المقامات العالية انبأوا التاجر بما كان، ففرَّ هاربًا ولم تغن الحيطة فتيلاً فلم يرضَ ان يقتصَّ من المأمور ظلماً وجورًا بل صرفهُ بعد اذ زوَّدهُ بالامر ان يبحث عن اخر انسانٍ ذهب التاجر لزيارتهِ قبل اختفائهِ

فخرج ماسير كراند من قصر الدوج منشرح الصدر مسرورًا واتجه صوب سوق ريالتو ليحجز على متاع الجوهري واذا برجل لابس ثياباً فاخرة وعلى وجهه لثام عريض قد وقف به فحال دون تمام سيره وخاطبه قائلاً

– لي معك كلمة اقولها متى خلونا لوحدنا

فعرف المأمور الصوت وانحنى للتكريم تعظيماً قائلاً انه العبد المطيع لصاحب الامر فسأله الرجل – وماذا جرى

فحكى له ما كان فقال اني نفعتك ياماسير كراند وتراني مستعدًا لمزيد النفع فرى ان من الضرورة ان تدفنني بان تستنطق هذا العبد المغربي امامي فانحنى المأمور ممتثلاً وسار امام الملثم ومن لحق بهما يريد حانوت الجوهري حيث كان العبد مخفورًا فلما دخل القوم الموضع اشار الملثم وامر المأمور بخروج الاتباع الى ظاهر الحانوت ثم بدأ يسأل الرجل قائلاً

— انك عبد رجل من الدّ اعداء الدولة ولذلك لابد من اعدامك الحياة الا اذا نطقت بالصدق فانا نطلق سراحك

— اسأل عما تريد

— من زار سيدك في آخر ساعاته هنا قبيل ان ارسلك الى حانوته

— زارهُ الكونت فالاس

فاجفل الملثم كمن اصيب بداهية وعرت المامور الدهشة والحيرة فقال الملثم

— احسنت وقد نطقت بالصدق ولكن احذر من ان تبوح شفتاك لبشر بما قلت الآن بل احرص على سرك فان بحت به حتى للحجارة تموت من حيث لا تدري لان باع فينيسيا طويلة فاذهب بسلام

— ان شفتيَّ مغلقتان ولا يمضي علي الا ساعات معدودة فابرح المدينة

ثم خرج بأمر المأمور وفي اثره غير واحد من رجاله

عند ذلك رفع الكونت فالاس اللثام عن وجهه وقال — ان في اعتراف هذا الرجل خطرًا فمن اللازم ان ينظر اليه

ثم مد يده الى جيبه فحبا المأمور عطاء وافرًا فانحنى اليه بملء التجلة والاعتبار وكان المراد بالهبة ان تكون ثمنا لدم المغربي الواجب قتله ولسكوت المامور عن الحكاية

وما عتم ان ذهب المغربي الى حانةٍ مجاورة فخلع الثياب التي لبسها بامر الجوهري اذ ادّاهُ مبلغا من المال لقاء تغيير زيه ولبس لباسه العادي كسائر امثاله البحارة ولم يكن المركب بعيدًا عن البر حتى انه لما

انتصف الليل جاء زورق الى الشاطئ وراه النوتي فاراد النزول فيه ولكنه كان يلتفت ذات اليمين وذات اليسار خيفة ان يراه احد حتى نزل الماء فسار الزورق ولم يطل به الامد حتى رأى قارباً فيه عدة من المجاذيف وهو متجه صوبه وكان العبد خداعاً عارفاً بابواب الاسرار البندقية ولذلك صوّب نظره فرأى القادمين عليه في زورق من زوارق الحكومة فعلم ان قتله قد تقرر ان يكون سراً ومستعجلاً فعقد العزم على الفرار واتجه بقاربه نحو احدى الجزائر الصغرى المجاورة ولكن الزورق الرسمي كان اسرع منه جرياً واشد اقداماً لان الذين يجذفون فيه ثمانية رجال من الاشداء المقتدرين فيئس الرجل من السلامة ولكنه استسلم لحكم القدر ورأى الجزيرة وقد صارت على مئة خطوة منه ولكن رجال الحكومة الجائرة كانوا وراءه بمثل تلك النسبة واذ كان معدل سيرهم ضعف سيره حسب وصوله ووصولهم الى البر في ابّان واحد وكان قد استصحب في قاربه ضرباً من السلاح يقال له اليطقان وبارودةً البابية قديمة العهد فلما رأى من نفسه القصور عن الفرار وقعت عينه على ذلك السلاح فعزم ان يموت مدافعاً عن نفسه لا ان يذهب شنقاً او غرقاً

لاجرمَ ان اليأس يزيد المرء ثبتاً ويبعث فيه نشاطاً جديداً ولذلك فان المغربي عاودته الهمة لمزيد الامعان في الفرار واذا بصوتٍ مهيب قد صاح به من الزورق الاخر يدعوه الى التسليم

ثم سمع صوتاً منخفضاً يقول له اذهب من هناك فهناك زورق لكنه يحمل زورقك فاصاخ الهارب للنصيحة وتجه بقاربه تدلاً

فقال الصوت الخفيّ - اخرج من القارب واقصد البر

فنهض واخذ البندقية و وثب الى الشاطيء فبلغ البر قبل ان استطاع العدوان يجد سبيلاً لزورقه الى المرسى ومن ثم وقف الشقيّ على انقاض دير وكنيسة فرآه رجل ملثم وقال له اتبعني فتبعه وتبطن الرجلان هاتيك الانقاض وخرجا منها الى الجانب الاخر من الجزيرة حيث كان في انتظارهما قارب فاخذ كلٌ منهما مجذافاً وشرعا يجذّفان حتى بلغا البر سالمين قبل ان اقتدر زورق الحكومة على الطواف حول الجزيرة والانتهاء من تفتيشها

فلما بلغا البر سالمين تركا الزورق وسار الملثم والمغربي في اثره فاجتازا بعض الكروم والطرق الجانبية حتى بلغا داراً لطيفة المنظر غرابتها في مكانها انها تشذ عن رفيقاتها بنظافتها

ثم رفع الملثم البرقع عن وجهه فظهر انه شجاع فينيسيا فقال للمغربي ان هذا اولى بك من ان تصير طعاماً للاسماك

— اني مديونك بحياتي ولست لاهتم بشانك اياً كنت ومهما كان امرك على اني واثق بصدق قولك من انهم كانوا يقصدون اعدامي

— نعم لان ماسير كراند نال جائزة كبرى لكي يقتلوك وسرك

— عن الكونت فيلاس

— ان للجدران آذناً فاحذر واعلم ان لي عيوناً بين الشرطة واذ علمت بمقصدهم عزمت على احباطه و بذلك خاطرت بحياتي ولهذا اتوقع منك ان تكافئني بما اريد من استخدامك

— ساكون عبدك المطيع ما حييت

ـ عليك الا تعود الى فينيسيا بل اذا شئت استخدامك بحارًا في احدى بوارج الحكومة على ان ربانها من اصدقائي وهو يحسن معاملتك وانا اعرف ان خدمتك لكوزمو اللص المشهور لم تكن من ارادتك

فنظر المغربي في الشجاع مندهشا وقال ـ

ـ انا عبدٌ اشتراني ابن بطوطة الجوهري

ـ احسنتَ لان لاحتراس واجب اما الآن فنم هنالك وفي الصباح نصبح اقدر على التكلم

ثم انطرح على سرير خشن ونام تاركا للمغربي كومةً من التبن فراشاً

الفصل الخامس والعشرون

(في البر)

وفي اليوم الثاني بكر الشجاع ولمغربي فنزلا المدينة وكان المغربي لابساً زي عصاري الخمر وعلى وجهه اثر الادران والزيوت وما زالا سائرين حتى بلغا المرسى وقصدا البارجة بروفون وكانت قد عادت بعد اذ تغيبت بالخدمة بضعة ايام تطوف انحاءها في الجوار

وكان من قصد الشجاع ان لايظهر في المدينة في صحبة المغربي على ان الرجل لم يكن على ما تصوره بعض الناس من الخسة والدناءة وانما كانت له مقصد عظمى يتحراها بما قدر عليه من الذكاء والمهارة والتفنن بضروب الحيل والخداع مما كان يعتمد اهل الشطارة والفروسية في ذلك العصر فيدرأون مثلها بها وكانت غاية غاياته الفوز بالقبض على كوزمو اللص واجباره على الاعتراف بسره ليعيد لامرأته حريتها

وشأنها وناهيك به خادماً اميناً لصوالح الدوج

ولما وطىء الشاطىء اتجه نحو قصر الكونت ادريان والحال حظيَ به وكان ادريان قد استوثق من الشجاع وكفته لذلك اشارة من الدوج وليس خفياً ما كان يخامره من استفظاع امر اللص وتهالكه في سبيل اقتناصه حبا بسلامة وطنه ووقاء ذاته وامرأته وناهيك بالفادة انها كانت ترتعد جزعا من مجرد ذكر اسمه ويروعها تذكار خبائثه

فلما اختلى الشجاع بالامير في حجرة داخلية لايتطرقها السمع علم ادريان ان ابن بطوطة هو ذات كوزمو اللص فازداد حيرةً واندهاشا ومع براعته في الحيل وتفننه في الخداع بقي الشجاع مؤملاً بقرب الفوز

وبينما كان يقص على الامير اطراف الوقائع واوشك يزيده في المسألة بياناً فتح الباب فجأةً وظهر منه رسول من قبل الندوة العليا من غير استئناس الا ان الشجاع لم يعدم فرصةً الافلات والاستتار وراء سجوف الحجرة فنظر الامير الى الرسول نظرةً لاتخلو من الكبر وقال

ــ ماذا تريد

ــ جئت يامولاي النبيل من قبل الندوة العليا لاعرض لك انه وردت انباء مع قارب سريع مشيرة الى ان مركباً مشبوها عليه شارة السفن الانكليزية يطوف الارجاء القريبة وقد دلت اعماله على انه مركب القرصان تحت رئاسة كوزمو اللئيم

ــ مناسب

ــ احسبني لااحتاج الى مزيد القول لربان البارجة بلروفون

قال ذلك مقلاً من الاحترام بل بهيئة لاتخلو من التهكم

ـ انا عارف بواجباتي فلا تمضي الساعة الا وانا على ظهر بارحتي

فانحنى الرسول وخرج حتى اذا خلا الموضع قال ادريان لجليسه

— ما سمعت فان وقتي للوداع قليل

— ياسيدي قبل ان ترحل ارسل العبد الى البر على انه يعرف اين يجدني وتراني في اشد الحاجة اليه اما ظهور عدوك فحيلة لانك لا تبعد عن البلدة حتى يعود اليها

— تذهب الكونتة مع الاميرة بيانكا مخفورتين خفارة شديدة الى لوشينو مصيف الدوج

— واكون عليها رقيباً

— وانا واثق بك يابوناتي ومع ان في حياتك سرًّا تحتار له الالباب فاني اعلم من امرك ما كفاني بشرفك علمًا

فسرّت العبارة فؤاد الشجاع وانحني للامير اجلالاً ثم استأنف ادريان القول — ومن ثمّ فهلا عرفت شيئًا ياصاح عن روبرت ستانلي وهل تراه بين يدي ندوة علبا

— لايفوتني من اسرار الذين يمرون من فوق جسر التنهدات الا النذر القليل واخشى ان يكون اسديق قد عادى زعيم المفتشين فهلك

— يالها من حكومة قاسية جائرة نسأل الله تغيير الحال بحسن حال

فنفض الشجاع رأسه ثم اصغى لرسالة سرية بعثه لاميرها الى سمو الدوج فخرج من حضرته

وجاء ادريان القاعة لوداع امرته فطلبت اليه ان يستصحبها فابى لان الحكومة الجائرة بدأت تظهر امارت الغيرة عليه من حب امرأته

وهذا منتهى الغرابة وحد الجور

ومضى الشجاع الى فراشه فنام الى الصباح اذ نهض فاتجه صوب قصر الدوج واقام ثمة حتى نال نعمة الحظوى بالمثول لديه فسأله ان يسمح لهُ بالتغيب حينا

وبعد ساعة ركب زورقاً من زوارق الحكومة بعد اذ لبس رداء من حريرٍ معرق بزهور من ابهى الالوان ووضع ياقةً قرمزية اللون وقبعة من المخمل الفاخر وعلى ظاهرها من الامام شارة مطرّزة تدل على ان صاحبها بحارٌ مخصوص لذات الدوج

وما عتم ان ظهرت سيدتان من النبيلات وراءها جماعة من الجواري والاتراب يخفرها عصابة من الدلماسيين المدججين بالسلاح على انهم كماة اجرون خدمتهم العسكرية للجمهورية البندقية ووراء هؤلاء كثيرون من الخدم ينقلون المتاع

ولا غروَ فان السيدات في كل اين وآن لا يجدن لانفسهن عن التحلي والتزين بديلاً ولا يشغلهن عن ذلك شيء كأن ذلك من قوام عيشهن الرضيّ

ونزلت السيدات والاتباع في الزورق والقوارب المعدة لهم على اختلاف اقدارهم اما الشجاع فكان في الزورق الاكبر قائماً على خدمة الاميرتين ومن معهما من الاتراب وكانت ابنة الدوج صفراء اللون منقبضة النفس اما زليخة فكانت كأنها في حزن شديد لبعد الحبيب وتلك لخشية موت المعشوق

وكان سفرها في يوم اشتد هجيره ولذلك وقع التبديل فاختارتا

صرح لبنا وهو في موقع لطيف جداً يشرف على البحر فيأخذ من نسيمه البليل وتظلله الاشجار فتزيده جمالاً

وكانت القوارب السائرة بالاميرتين واتباعهما تحاكي اسطولاً من السفن على ان امارتها معقودة لربان من مهرة البحارة الذين ادركهم الهرم في معاناة الاسفار ومعالجة السفن في العباب وقد مرت به الطوارق والحادثات وهو كالصخر الصلد لا يهاب منها وقعاً ولذلك استأمن الركب الى مهارته فوصل بالاسطول سالماً الى البر

وهنالك كانت البغل قد اعدت للاحمال ولركوب الغلمان وهيئت الهوادج للاميرتين ومن معهما من السيدات

فسار الموكب الحافل مخترقاً بلاداً ناضرة حتى اشرف على حزن فيه عقاب وحطام وعلى جوانبه اشجار ضخمة وكان مسير السيدتين في طليعة القوم ووراءهما الخفر يتلوهم الخدم فالكراع اما البحارة فعلى انموزج سائر اهل حرفتهم ظلوا عند قواربهم على الشاطيء الا واحداً منهم فانه ما وطئت قدماه البر حتى دخل كوخا هنالك وغير ثيابه فلبس زي الفلاحين واسرع فلحق بمؤخرة الموكب

وما زال القوم يسيرون حتى صاروا على مقربة من الموضع الذي يقصدون فبرز من الغابة التي وراءهم شخص ان هو الا المغربي في لباس بحارة الدولة فرآه الشجاع واقترب اليه فكلمه بعض الكلمات ثم عرّج عن الطريق وسار حتى دخل الغابة ومنها الى تلاً يشرف على صرح الدوج ويكتنفه غاب شجر الصفصاف فيطل من خلاله على جسر قائم فوق نهر يجري على سفح التل ونظر الى احدى جهات الغاب فابصر

ثمة موضعا موحشا يكاد يخلو من الساكن والانيس اذ لا يمرّ به الا قطائع المعزى والصيادون وفوق ذلك فانه لايخلو من الصخور والحطام ذات المعابر والمضايق والمخابىء مما كان ينتفع بها لذين تتعلهم مظالم الحكومة فيفرون من وجهها الى حيث لاينالون اذا خبأتهم اهل البلاد وادرت عليهم الزورق حتى يجدوا لانفسهم سبيلاً الى الفرار نحو بلادٍ اخرى

وكان الشجاع عارفاً بذلك الموضع ولهذا قلق خاطره وتبلبل باله لئلا ينال ابنة الدوج وكونتة فاركاس ضرر على ان الاولى اصبحت وحيدة ابيها ومحط اماله وكيف لايقلقله البلبال عليها وهو عارف ان القرصان الاشقياء لاسرع حراكاً واشد تحيلاً واكثر وسائط من الفارين من مظالم الحكومة ولذلك فلا يبعد ن يكون اولئك الاثمة على قربٍ من الصرح في غير موضع من جواره

واذ تبدى هذا الخاطر لبال الشجاع عقد العزم على اتخاذ ذلك التل مرصداً يترقب منه الاشقياء بصحبة المغربي

واقاما هنالك فوجدا في وسط الغاب موضعاً احتبكت اشجاره وغضت اغصانه فاتخذاه مقيلاً وجمعا من العيدان وقيداً فاضرما ناراً وشويا عليها جدياً استحضره الشجاع مع شيءٍ من الخبز والكعك والخمر والعنب وما عتم الرجلان ان دبرا الاغصان المحتكة وقاءً لهما من لفحة البرد في الليل وشرعا يعالجان الشواء ولم يمض عليهما نصف ساعة حتى نهض الشجاع مسرعا وانزوى في قلب الخيمة اذ سمع وقع اقدام خفيفة يقصد صاحبها التحرز ثم اعقبها اشتداد وقعها كأن الماشي عاد على اعقابه راكضا فلحق الشجاع بهِ ولكن لم تطل بهِ المسافة حتى تضعضع بين

اشجار الغاب فوقف عن الركض وسكنت الضوضاء عقيب ذلك فعاد الشجاع الى خيمته منقبض النفس فرأى العبد مهتماً باعداد الطعام فاخذ البندقية الالبانية اذ لم يكن قد استصحب معه شيئاً يعتمد به وخرج فاختبأ بين الخمائل على بعدٍ قريب فطال به المطال ولم يظفر بطائل ومع انه رجل عرك الدهر وحلب اشطريه وتعلم الصبر حتى صار لا يعرف الملل فانه ضجر من التربص للعدو

وهكذا حتى مرّ النهار واقبل الليل فعلقا شطر الجدي في احد الغصون وعلى بعدٍ منه زق الخمر بيقية ما فيه ثم شرع يتناوبان الحراسة على ان ينام كلٌّ منهما ست ساعات يسهرها الاخر وكان المغربي اول من ينام والشجاع يخفره الى نصف الليل فلم يعترض العبد على هذا الحكم بل القى بنفسه على الارض وما عتم ان نام وغطّ اما الشجاع فاتجه صوب موضع عالٍ يشرف على الصرح واستند على شجرة وتكأ على بندقيته وبدأ في مراقبته

وكان يرى انوار الصرح متلألئةً ويسمع عزف الموسيقى في العشية ومن ثم يرى اشباح الاميرتين والاتراب ومن يتخطرن على السطوح المطلة على النهر والقمر استترّ

ثم تدرجت الاصوات الى السكوت والحركات الى السكون والنور الى الظلام الحالك فشرع الشجاع ساعتئذٍ بوحدته على انه نبحث مراقبا السطح والممشى الذي تحته وكان مزدرعاً باشجار الليمون ويعلو عن مجرى النهر ثلاثين قدماً او تزيد وحافتها الحاوية مكونة من صخور طبيعية الا في بعض المواضع فانها من بناء ذويه وكلها ملساء يعسر تسلقها لا

على القرصان الاشداء فانهم لا يستصعبون ايجاد سبيل لما يريدون ولذلك كان الشجاع قلق البال على الاميرتين ليسعى جهده في حراستهما حاسبا ان اللصوص لايقدمون على اقتحام المنافذ الى القصر لان دون ذلك حرباً لايقوون على الغلبة فيها وانما يتخذون الخدعة سبيلاً والخلسة منهاجاً حتى ينالوا مرادهم

ودجن الليل واشتد الحلك فاختفت اشباح القصر عن العيون ولم يبق ظاهرًا للرقيب الباسل الا خطوط توشك ان تكون وهمية على انهُ اكتفى بما كان يرى فلم يبرح مكانه

واغرب من هذا واعجب ان السكون كان ضارباً اطنابه والهدو بالغاً منتهى الغاية حتى ان بوناقي كان يسمع من فينيسيا دقات ساعاتها المشهورة سماعاً لا شك فيه

واذ كان على وشك الخلاص من حراسته عند نصف الليل سمع دقات الساعة حتى اذا انتهت اصغى خلال ما ساد من السكون فسمع صوت مجاذيف قاربٍ يمخر البحر ناجفل مما كان واسرع الخطى نحو العبد فايقظه واوعز اليه بالمراقبة الدقيقة ثم انحدر من الاكمة بملء الحذر والهدو من غير ان يحدث صوتاً لان ثيابه من المخمل وحذاءه من اللباد وكلاهما اخرسان لا يسمعان حساً وما فتيء منحدرًا حتى بلغ حافة النهر عند منتهى الاكمة و بداءة باحة القصر ومنشاه المذكور

واصغى بملء قدرته ثم نظر في الظلام الحالك مستجساً فلم يسمع ولم يرَ شيئاً فصبر عاقدا العزم الاينام تلك الليلة لما رأى من واجب المراقبة والحذر على ان النعاس غ لبه طويلا فلم يلق منه الا قرما عنيدا

الفصل السادس والعشرون

(خائث الاشقياء)

واصبح الصباح مشرقاً بنوره الساطع وشمسه المضيئة فنار الصرح ولم يبق ثمة من خوف علي السيدتين بل امن الشجاع الخطر ورأى ان يترك الموقف ويعود الى حيث يقضي سنة الطبيعة بالطعام والمنام فيعيد لجسمه ما سلب من الراحة وما زال مسددا خطواته حتى اشرف على موضع العبد فرآه قائما في مكانه لم يبرحه مدى حراسته ولم يكن قد رأى شيئا او سمع حسا يوجبان له القلق او يوجس منهما خيفة فسار به الى الخيمة ونظر حواليه حيث كان اللحم والخمر والخبز والعشب فلم يجد لها اثرا

وعلم الشجاع ان تلك الفعلة يراد بها شيئا كثيرا فاعمل الفكرة طويلاً حتى خطر له ان الفاعل هو العبد فحدجه بنظره فرأى الدهشة والحيرة باديتين على محياه فبراه في فكره من الفعلة ثم سأله قائلاً

— من ترى فعل ذلك

وكان الشجاع عارفا بدقائق احوال بلاده حتى ان مثل هذه المكنونات لا تخفى عليه فقال

- لعلّ غير واحدٍ من الهاربين المختبئين في ظلال هذه الكهوف قد انهكه الجوع فاشتم قتار اللحم ودبّ تحت جنح الليل فاصاب زادنا وحمله رزقاً حلالا

واذ كان الشجاع عازما على تتمم عمل مهم في ذلك النهار رأى

من الضرورة ان ينال طعاما وكان يعهد على قربٍ من الموضع دسكرة حقيرة يتردد اليها رعاة لانعام واهل القرى ويصيبون فيها طعاما فاعطى العبد شيئًا من الدراهم وانبأه' عن الموضع وسره في طلب الزاد ريثما ينام قليلا فسار المغربي وعاد بعد ساعة ومعه الخبز را تمر وشيء من اللحم فاكل الرجلان منه ووضع لبقية في موضع متى اتاه زئر الامس يعلم انهما فعلا ذلك قصدا على ان المظلوم الذي يمضه جور الحكومة لايلبث ان ينال من الشجاع الشفقة عليهِ والرحمة بهِ

ثم انحدر الجرلان صوب النهر وكان بوناتي عارفا بانه لايتأتى السفر في النهر على مدى مجراه ولذلك يسهل عليه ايجاد القارب والا فان سماعه بالامس كان وهما وما زالا سائرين على مجرى النهر نحو ساعة وعيونهما فيه وناهيك بان على الضفة اجاما مشتبكة واشجارًا من الحور والصفصاف يتمكن المرء بها من الاستتار عن العيون فكان الرجلان يختبئان فيها ويطلان منها على المجرى حتى اذا انتهيا من المراقبة هنالك اختارا موضعا اخر وما برح هذا حالهما حتى انتهيا الى موضع عرفا بقصور القارب عن اجتيازه لسرعة الماء فيه ولان المجرى اشبه منه بالشلال

ساعتئذٍ عدل الرقيبان بوناتي والعبد الى غضيض من الاشجار والاجم وشرعا يتذاكران في الامر فقال الاول

— ان خداع كوزمو بجراته لما تحتار له الالباب ولايعرفه الا القليل من الناس فماذا تقول انت

فكان الرجل لم يسمع الحديث او ان القول لم يكن كما بلغته واذنه' فاحتار ولكن بوناتي لم يفسح له' مجالاً للتخلص من طائلة الجواب

ومن ثم قال للعبد ان يتربص في مكانه ريثما يذهب هو بنفسه فيضرب في الحزون والاودية تجسساً للاخبار فاطاع المغربي الامر كعادته واختبأ للمال بين محبتك الاشجار

وسار بوناني متجسساً متحذراً ينظر ذات اليمين وذات الشمال حتى انتهى الى ما وراء منحدر النهر حيث يتمكن القارب من السير لما يتوارد على النهر من ماء الجداول المنحدرة من التلال المجاورة

فداخله الريب عندئذٍ في صحة ما خطر له من الطريق التي سار اللصوص عليها ومع ذلك عقد النية على متابعة البحث الى النهاية وما زال يضرب في الشاطئ حتى اتسعت مجاري النهر فاصبح بها كالبحيرة تحيط بها اشجار الصفصاف فانعم بوناني النظر واذا به يرى من بين صخور الشاطئ دخانا متصاعدا فعرف انه اتى عرين الاسود او مغارة اللصوص ولذلك بدا له واجب الحذر والتدرع بالحيلة والخديعة ومع ان زيه كان مغيرا عن الزي المعروف به فان بعض القرصان كانوا يعرفونه حق المعرفة واذا كان الزعيم بينهم فهو لا يخفى عليه على انه اذا عرف امره كان سببا في تعجيل منيته

وفكر في الامر فراى ان دون البلوغ الى مصدر الدخان عناء السباحة في البحيرة ففعل ثم اخذ البندقية بيده وصلاها وتقدم بقدم خفيفة على الشاطئ بين الادغال حتى صار في باب الغار فراى النار مضرمة على بعد ولكن لم يسمع لذلك حسا فدب صاعدا الى فوق واذا بالامر قد اتضح اذ عرف بوناني منه ان العصابة قد قضت ليلها في ذيالك الموضع وانها اتخذت من القارب وقيدا لكي لا ينم وجوده عليها فيهتدى اليها

ومن ثم اعمل الفكر في ادراك الطريقة التي عولوا على اتخاذها وصولا لمرادهم فرأى ان يتبع آثارهم فابصر خطواتهم ظاهرة على شاطئ النهر . ثم رآها مالت صوب التلال ومن ثم ضاعت بين الحزون فما انقطع عن السير لضياعها بل كان ينقب و يبحث في الكهوف العديدة ووراء الصخور وفي كل حزن ونجد فلم يعثر لهم على اثر كأن الارض فغرت فاها وابتلعت الجميع لكن ذلك لم يثن عزم الرّجل عن تتبع بحثه بعزيمة لا تعرف الملل حتى رأى الشمس قد اصفرّت فاذنت بالغياب وكان ساعتئذٍ في وادٍ ظليل رأى الخضرة فيه ناضرةً والاشجار غضيضة ودوالي العنب البري ونبات البطيخ في ابان نضجها

واذ كان ينظر فيها رأى اثر الاقدام فتبينها واذا هي تدل على مرور رجلين احدهما منتعلٌ حزاءً ضخماً عسكرياً والاخر خفاً رقيقاً شأن بعض الرهبان فاحتار بوناتي في امره واسقط في يده وشرع يضرب في اودية الحدس والتخمين حاسباً للخيانة الف حساب والشقاء والويل على اثرها يجران ذيولا ومع الامعان في المسألة واطالة الفكرة لم يهتدِ الى حل الابهام

ثم نظر الى الشمس فاتخذها دليلاً فاتجه صوب القصر واسرع الخطى فرأى السبيل اليه وعرًا اذ اعترض دونه كثير من الوديان والتلال والاحراج عداء عن اجتياز البحيرة وما زال مجدًّا حتى ادرك الموضع الذي ترك المغربي فيه وقد دجى الظلام فلم يجد الرجل بل نادا بصوت خافت ولكن لم يكن من مجيب فصغى واذا به يسمع من وراء الغاب انيناً تتفتت له الاكباد فقصد مصدره مسرعاً فرأى العبد ملقىً على الارض

صريعا والخنجر في صدره فلما راى الشجع مقبلا تنهد من اعماق قلبه واجهد النفس فنطق بنبء ان كرزمومر من هنالك منذ نصف ساعة في صحبة اثنى عشر رجلاً فاخذوه على غرة وطعنوه في صدره لانه خانهم ثم امسك عن الكلام اعياء ولكنه حرض الشجع على النجاة بنفسه غير ان برناتي وعده باستحضار المساعدة واسرع في الذهاب

وكان للص وتباعه الاشقياء قد تقدموه والليل فاصل بين الفريقين بظلام حالك وناهيك بان عاصفةً شديدة كانت على وشك الابتداء الا ان الشجاع لم يكن يثني عزمه عن مقصده .

فوصل النهر واجتازه سباحةً ثم خرج منه وركض ولكنه كان تعبانًا لا يستطيع السرعة الزائدة ومع ذلك فان اعماله كلها غرائب اذ بلغ سفح السطح الموصوف فرأى لدهشته حبلاً مدلىً منه فخفق فؤاده واضطربت جوارحه واسرع فتسلق الحبل الى فوق فرأى في الصرح الفظائع العظام وسمع طقطقات النار واين الناس وصراخ النساء بين فرقعة السلاح فدخل حجرةً ومنها الى ساحة الدار ولم يكن ثمة احد من الخدم لاختفاء الجميع اما الجند الماسي فقد بيته العدو وباغته وغلبه فغلبه كما دلت على الفعلة جثث القتلى

ونظر فرأى اللصوص راكبين على البغال وخارجين من باب الصرح وهم يسوقونها بالعنف والقسوة اذ يدخزونها بالمدى والخناجر فللحال نادى الشجاع بالخدم فجتمعوا وطافوا في الصرح يبحثون فيه فوجدوا الماسيين جميعاً قد ماتوا خلا اثنين منهم ومن السيدتين والاتراب والجواري كن قد سبين

فاستعظم الخطب وقال هي الفظيعة الكبرى والفضيحة العظمى ان تسبى الاميرات وفي فينيسيا رجال

وللحال بعث رجالاً من الخدم العارفين وامرهم ان يسرعوا في القوارب الى البلدة ليخبروا الدوج بما كان وافادهم ان سفينة القرصان ليست بالبعيدة عن مياهنا وايما مركب من بوارجنا يستطيع التعرض له اما هو فعزم ان يبقى ليرى اذا كان المغربي حياً او انه قضي مأسوفا عليه

فشرب زجاجة من الخمر وعاد على اعقابه مارًّا بالحجر الفاخرة المزدانة بضروب الاطلس والحرائر حيث كانت منذ حين قصير بنت الدوج والاميرة ثم خرج الى لسطح فتنسم رائحة الليمون العطرة

ثم ابصر الحبال فخطر له ان يتفحصها فوجدها مرتبطةً الى الشرفة بقطعة من حديد حجناء فانتفى من خطره ظن الخيانة من الاتباع اذ يسهل على غير واحد من البحارة القرصان ان يتسلق الجدار ويلقي الحديدة فتتمسك بالشرفة ويتدلى الحبل منها

وما عتم ان كر راجعاً فلما بلغ شاطىء النهر احسَّ بخوار قواهُ مع انها شديدة الحول فشرع يغسل يديه ووجههُ بالماء البارد حتى انتعشت نفسه فيه فعاود السير غير مبال بالرعود والبروق الدالة على العاصفة القريبة الوقوع وما زال ضاربا في طريقهِ بين الادغال حتى بلغ الغابة حيث كانت امانيه الكاذبة تحدثه بافراج الازمة لكن ظهرت لديه خيبتها جملةً بادراك اللص غاية اماله ذلك ان بوناتي كان يؤمل نجاة المغربي من مخالب المنية فلما عاد اليه رآه جثةً من غير روح فساءه ذهاب الرجل شهيد توبته عن مصاحبة القرصان في رذائلهم وفكر في

الامر فرأى ان يصون الشلو من عادية الذئب التي كانت كثيرة الوجود هنالك حتى انها لتنتاب القرى والمزارع غير متهيبة بسالة اهليها فحمل الشجاع الجثة وقصد بها اجمة تشابكت انجمها وغصونها فصارت كالاسوار حتى يعسر على الحيوان ارتيادها وجعل الميت فيها ثم ارتد على عقبه

غير انه كان محتارًا في اختيار السبيل الذي يتخذه لبلوغ مقصده اذ لم يكن يجسر على مقابلة الدوج وهو في تلك الظروف التعيسة لئلا ينظر اليه بعين الازدراء لقصوره عن الحماية وقعوده عن صيانة وحيدته مع ان عليها قيام اماله فاضطربت افكاره وتبلبل خاطره حاسبًا نحس طالعه الف حساب

واشتدت العاصفة وامتدت ولكن الشجاع لم يعبأ بها لان افكاره اتجهت الى حاله وكادت تستغرق منه وجوده لولم يسمع صوتا عرف منه ان في المكان بشرًا فنظر واذا برجلين يمشيان امامه على بعدٍ غير بعيد منه فظنهما من القرصان لان مجيء غيرهم من الناس في تلك الاونة يعد عسيرًا ولذلك اسرع خطاه نحوهما فادركهما ورأى احدهما طويل القامة نحيلها اما الآخر فكان بادنًا فلما دنا الشجاع منهما ورآهما متجهين صوب الصرح وضع يده على قبضة حسامه وصاح بهما قائلاً — اين تذهبان

فاجاب اطول الرجلين وقد اراد ان يمتشق حسامه فاعجزه حمله

— ويك انا لا اوخذ حياً

— ولكن من انتما وما شانكما

فقال الرجل — البدين لسنا الا كاهناً ورجلاً تائباً فتذكر الشجاع
مارأى من إثر الاقدام واذا هم ببرق لمع فاضاء الارجاء وانار
وجوه المتخاطبين في ايماضه فعرف كل من الشجاع
...ب رفيقه ونظرا الى بعضهما نظرة
...ة ولا نفصح عن شانهما حتى
...ب هذا الحديث ونعود
الى غير منسي



تم الجزء الاول ويليه الجزء الثاني